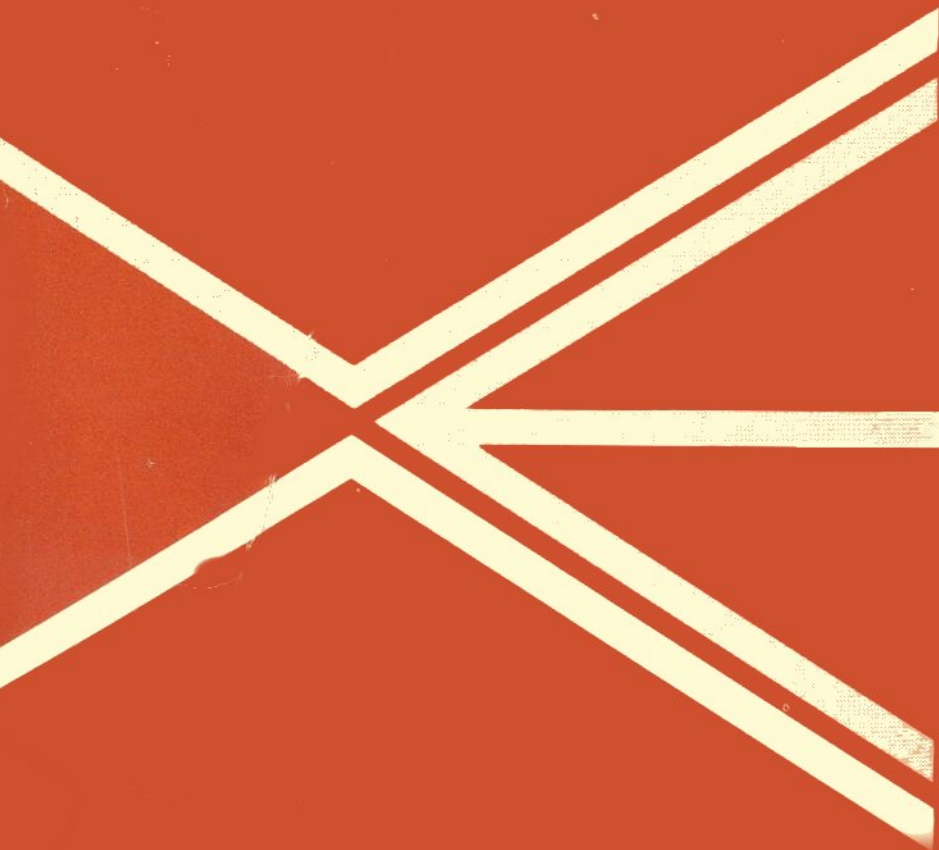




المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

عبد الرحمن منيف

حين تركت الجبسة



جميع الحقوق محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساحة الجزيرة - ت ٨٠٧٩٠٠ / ١
ببرقياً - موكبالي - بيروت - ص.ب. : ١٧٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الرابعة ١٩٨٧

عبد الرحمن منيف

حِينَ تَرَكَنَا الْجَسِرَ

رواية

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

الإهداء

إلى عاصم خليفة ، أحمد مدنية ، وحمزة برفاوي .. ذكرى خيبات
كثيرة مضت .. وأخرى على الطريق .. ستأتي .

عبد الرحمن

الفصل الأول

- اصرخي يا بنات آوى، اصرخي بفرح الالبسة حتى تشقق
مؤخراتك التتنة، فالهزء الذي يمتلئ به الهواء لم يعد يهمني.
قلت لنفسى بتخاذل : أحس كل شيء هازئاً وفيه لزوجة . اهتز رأسي
دون ارادة .

أضفت بيأس : أنا انسان ملعون !

سمعت العواء من جديد . قلت :

- اضحكي، أعرف هذه الضحكات، أعرفها تماماً، لكني
سأجعلها، كما قال شاعر أبله، ضحكا كالبكاء . سأدفنها في مزبلة وأبول
فوقها .

توقفت لحظة قصيرة، ثم صرخت بهياج :

- لن تغلتي مني أيتها الزانية !

وعاد إلى صوتي الانكسار :

- لا .. لا أريدها، بالتأكيد لا أريدها !

وتذكرت كيف حصلت الأمور . قلت لنفسى : كنت مخطئاً ليلة
البارحة عندما تحولت إلى معنوه وانتظرت تلك الحيوانات القذرة، أما

ديك السمن الذي قرفص على الحجر، كما لو أنه حيّ، فقد جعلني مقبرة، اختلط مع الديوك الأخرى، المذبوحة بالخنق، وارتمى كقطعة رخوة. أتذكر اني سألت الديوك بضراعة بوذي مسن: من ارتمى منكم فوق الحجر؟ ولم أنتظر جواباً من الديوك، قلبتها بتوسل، لكن رخاوتها المسبولة فوق البلاط ظلت مستمرة.

صرخت:

- أعرف أن أنفاسها القدرة لم تقترب منك، لكن هلا قلت لي شيئاً؟ وظلت الديوك في أماكنها باردة خرساء.

ويذعر مجنون قلت لوردان:

- كن يا وردان ثعلباً وانتف من ذيلك شعراً، ثم ألصق الشعر في فك واغرق في الماء، بهذه الطريقة لا تقتل عنقاء هذا الزمان وحدها، بل وتقتل الافاعي وديوك السمن التي تتساقط كالهوام على أشجار العليق فوق المستنقع، وتستطيع أن تمسك بنات آوى من خصيانها!

ضحكت من التشبيه البذيء، لما تصورت ان «بنات آوى لها خصي». قلت لنفسي بحزن: الجنون له بداية.. أما نهايته فلا يعرفها أحد!

ظلت أصوات بنات آوى تنبعث في ظلمة أول المساء، كانت أصواتها فجأة وأقرب إلى ولولة عابثة. سألت نفسي: أهي حزينه؟ ساخرة؟

صرخت:

- لا يمكنني أن أتحول إلى أبله.

قلت لنفسي: زكي نداوي هش كالقصب.

اهتز رأسي، كان اهتزازاً يائساً وحكيمياً. قلت في محاولة لأفتنع: نيرانك ركزها على العدو الأساسي وليس على كوز الذرة.. وهذه الحيوانات القدرة، التي تختبئ طوال النهار، لا تعني شيئاً بالنسبة لك. ما تريده

تلك الساحرة، البطة التي ولغت في دمائك، كما لو انها بصقة المرأة السوداء.. أتفهم ما أقول لك؟

مددت يدي لألتقط حجراً، لما التقطته وجدته كدرة رخوة، أكثر هشاشة من ارادتي، صرخت:

- الارادة تفتت من اليأس مثلما تفتت الكدرة تحت المطر!

ألقيت الكدرة بقرف وناديت وردان. اقترب بلهفة، يريد مساعدتي. سألته:

- سأقطع ذيلك يا وردان واجعله قلادة، ماذا تقول؟

احتك بساقي، دار حولي، لكن لما رأيي أنهم بلعنات يائسة، ابتعد، كما لو انه يريد العودة من حيث أتينا. استعدت في مخيلتي صورة الطريق: الخندق المليء بالماء، القنطرة الصغيرة، أشجار الجوز العارية، أشجار الحور، ثم العليقة. قلت في نفسي: وردان لا يتنازل ولا يرعوي.. أما أنا فكلب سائب يخاف من تلويحة اليد. فكرت: انتفضت فجأة، ضربت الماء بصوت أقرب إلى الدوي، انخفضت وهي تترامي أمامي على طول النهر. كانت خائفة.

قلت في نفسي: آه لو تطلعت في عينيها لحظة واحدة! ارتفع صوفي بحقد:

- عد أيها الخنزير. سأقطع ذيلك وأطعمه كلباً آخر.. كلباً سائباً! سمعت خفقات جسده. كان وردان قد توقف، ربما ابتل قليلاً وهو يتراكمض، عندما ينتفض هكذا فهو يحاول التخلص من البلبل.

قلت في نفسي: ابتل وردان. لكن اصطفاق جسده الآن لا يعادل لحظة من ذلك الدوي المزدهر. فكرت: لما سمعت الدوي أصابني خوف مفاجئ. لم أعد أعرف أين يدي وأين أصبحت بندقيتي. نر العرق فجأة، وكأن كتلة من الثلج البارد أو كتلة من النار، تدفني.

ارتفعت الجوقة مرة أخرى ، أصواتها متداخلة كثيبة ، تذكرت
جدتي . كانت جدتي حين تسمع أصوات الكلاب ممدودة رخوة متطاولة ،
تقول بأسى ، وهي تتلمس جسدها : « اللهم اجعله خيراً » .
صرخت :

- اللهم لا تجعل لي قلباً .

وفكرت : كانت أصوات الكلاب ، وهي تمتد في الهواء ، تجعل
لكل شيء كثافة أقرب إلى الصمغ ، وكانت تثير فينا أحزاناً ومخاوف ،
ولا أعرف لماذا كانت تلك الأحزان تنفجر في القلب تماماً . وكان الخوف
يرافقها ، ويظل هناك حتى اذا تنحنح أبي ، لبدأ قصة جديدة .. عند ذلك
كان صوته يطغى لفترة على أصواتها وعلى الحزن ، ثم يهجم الخوف مرة
أخرى . كنت أقرب من جدتي ، ألصق بجسدها لعله يمنحني الشجاعة
التي أريدها .. وتندفع أصوات الكلاب : بعيدة ، يائسة ، مخيفة ، واقترب
من جدتي أكثر ، أرى غيمة صغيرة من الحزن تمر في عينيها ، لكنها
لا تلبث أن تطردها بتلك الكلمات الغامضة التي لا تخفى عليّ : « اللهم
اجعله خيراً » .

سألت بحدة :

- وردان ، أيها الاجرب ، الا تسمعها؟ سأقتلها ، سأجعل جلودها
أحذية لك !

سألت نفسي : ماذا أريد من هذه المخلوقات البذيئة؟ أجبت بثقة :
لو كانت جديرة بالرصاص الذي يطلق عليها لما ظل واحد منها حيا .
وتذكرت الليلة الفائتة : وضعت ديك السمن على الحجر ، عند الممر تماماً ،
وانتظرت . في الماضي كنت أراها من هناك تمر . قلت لنفسي : ستمر الآن .
انتظرت ، لم تظهر . فتحت الضوء فجأة ، فلم تظهر . كنت أرتجف من
الانتظار ومن البرد ، لكنها لم تظهر . صرخت بعد الانتظار :

- أيتها الاقزام المتروكة ، سأنتزع أعناقك كما تنتزع رؤوس الفجل ..
انتظري حتى تري !

أشعلت الضوء ، كنت أدفع البرد والصمت بالانتظار .. ولم تظهر !
قلت بصوت أردته أن يكون شديد الثقة ومؤثراً :
- وردان .. الدنيا لا تنتهي في يوم واحد .. أماننا الحياة كلها لنتزع
أعناقها ، الا توافقني ؟

ظل وردان يدور كما لو انه ذبابة . بدا ضجراً كثير التشكي . فكرت
بتلك اللعنة السوداء ، بدت لي شديدة البياض وأقرب إلى الصلابة .
تذكرت ارتعاشتها . خرجت من حلقي أصوات هوجاء لا معنى لها . كان من
الواجب أن أرمي هذه الأصوات إلى الخارج ، وفجأة صرخت لأنغلب على
خوف انفجر في داخلي :

- لأمت ولا أجد من يدفني !

أحسست جسدي يلتصق بالظلام أول الأمر ثم يمتزج فيه . لم أعد
أحس بوجود مستقل . أصبحت الظلمة غيمة ثقيلة وأنا أدور فيها . تهيجت .
خرجت الكلمات سريعة لأغتال الخوف :

- لنترك الحيوانات المنحطة يا وردان ، نحن نريد تلك التي تخفق
بأجنحة الالباسة !

لما مددت يدي إلى ديك السمن الموضوع على الحجر ، أحسست
ببرودة قاسية ، أقرب إلى برودة الحجر . التقطت الديك بسرعة ، شعرت به
يملاً حيزاً هائلاً في يدي الفارغة المفرودة في الظلمة . قلت له بهدوء
مصطنع :

- لنرحل الآن يا وردان .. لنرحل كجنود ينتظرون معركة أخرى !

عند المنعطف برقت عينان. لا أدري لماذا انفتل رأسي تلك اللحظة
وامتلأت بشعور الحسرة، حتى كدت أحتقن. قلت بصوت خشن :

- أيها الشيطان الملوث.. المتداخل الألوان، لن تغفل، أسمع
ما أقول لك؟ اذهب، أمنحك الآن، كإله، يوماً آخر لتعيشه، لكن
سألوي عنقك كما تلوى الجبال، إذا أفلتت الجنية مني مرة أخرى.

كان البرد مباحاً متمدداً في ذرات الكون، لكن، والموتور ينزلق في
الظلمة الراكدة، أخذ يتجمع بسرعة أكبر، يتحول إلى مخارز حادة تنغرز
في العظام. صرخت بوردان الرابض أمامي مثل كيس لّين :

- سأجعل ريشها وسادة لتنام عليها.. وإذا أردت نعالاً فسوف
أصنع لك واحداً من جلود الخنازير المشوهة.. تدفأ بالامل يا وردان،
كما يدفئني الحقد. لا تخفض رأسك كسلحفاة، ارفعه، ارفعه قليلاً،
وأنفك، ابعده عن الريح، أسمع ما أقول لك؟

كانت الريح تشتد، أما السماء فكانت تختقن تدريجياً بالحمرة
القائمة وتداخل بالافق الآخر ثم تصبح جزءاً منه.. وفوق كل الاشياء
انتشرت رائحة المساء الرطبة المزدحمة المليئة بتوقع ما. قلت لإله مجهول،
لا أعترف له بأي سلطان :

- في الماضي حكمت كل شيء.. والآن.. أنا الذي سأحكم. اخلق
بقدر ما تشاء.. وسأقتل، حتى إذا التقينا وتواجهت أعيننا، فسوف تعرف
أن الانسان أقوى من كل المخلوقات، ليس أقواها فقط، بل اشرسها!
وفكرت بأسى: اليأس ينتشر في روحي كما لو انه دم آخر.. ولكن
كيف تسرب اليّ هذا الشيء الذي حاربه طوال سنين؟

سألت نفسي: ماذا أخسر لو قلت: بسم الله؟ قلت بتحد: أضعت
كل شيء.. أضعت الثالوث المجوسي الذي أتبعه في الصيد، والذي أردده
بلا توقف في ساعات الصفاء، ولم أظفر. الآن.. إذا أضفت اسماً جديداً

فماذا يفيدني؟ وتابعت بتحد أكثر: اسمع يا زكي، يا ذنب الاعمى، يجب أن أقول لماذا فشلت، لا تغضب، أنت الآن مهزوم، مهزوم وحكيم روعته الحكمة الضائعة.. مهزوم لأنك لم تتبع الوصايا المقدسة. أعرف انك تقول دائماً لنفسك: صوّب، اسبقه، ثم أطلق بهدوء. حفظت هذه الوصايا مثل كاهن يواجه الجمهور لأول مرة، لكنك لم تظفر. السبب انك لم تفعل شيئاً في وقته. رغم الوصايا كان صوت الطلقة الخائبة يدوي.. ماذا لو قطعت نَفْسَكَ؟ لتقطع أنفاسهم. يقولون لك وأنت جندي: اقطع نفسك. لتقطع أنفاسهم. آه لو ان أنفاسهم التي تملأ الدنيا بتلك الرائحة الكريهة تنفقي إلى الداخل. لو ان ذلك حصل لماتوا. لا تخنقوا. لا يهم، لا تقطع أنفاسك، أتركها طليقة كالريح، والظير ليس حجراً، إنه كالعرس عندما يخفق بأجنحته الملوثة ويتلوى.. وأنت اذا أردت ان تمرغه بالدماء فصوّب، ثم اسبقه.. ولا تتعجل!

فكرت: لماذا أريد أن أضيف إلى الثالث المجوسي طعماً جديداً؟ أن أقول الله مثلاً؟

قلت لنفسي بيأس: أنا لا اعرف شيئاً البتة، والطلقة تخرج مجنونة من البندقية، وتختلط بالريح، برفات الاجنحة.. وتضيع كل الوصايا. لأترك الله بعيداً، يجب ان لا أشركه في أموري الخاصة. الطلقة عندما تهجم لا تعرف أحداً، وعندما تدوي وتضيع في الهواء أقتل رأسي وأبصق.. ويجدر بالله أن يبقى بعيداً!

وتذكرت عندما خفقت بأجنحتها وأعطت نفسها للريح. صرخت بذل:

- يا عود النرجس المهجور يا زكي.

وأتذكر اني ابتسمت وقلت لنفسي بسخرية: نرجس؟ أي نرجس؟ أنت عود المزابل يا زكي. أنت لست صياداً، أنت ابله في ثياب متسول، لا تسمع ولا تفهم أبداً، كما لا تجوز عليك الصدقة!

وفي كل مرة أصرخ بحقد عندما انتزع الطلقات الفارغة. أقول
لنفسي: سدد أيها الأبله. أسحق الطير أيها الأبله. وإذا عجزت عن أن
تسبقه فصبّ لأركانه الأمامية: المتقار، الرأس.. واقصى حد الرقبة.
ولا تتعجل أيها الأبله. وكثيراً ما كانت لهجتي تتغير، تمتلىء بالاسى وأنا
أتابع: إذا أردت أن تكون صياداً فهذا هو الباب الضيق، لأن كل تجربة
بعد الجسر مرة ولها طعم التراب، أنفهم ما أقول لك أيها الأبله، يا عود
المزابيل؟ إذا أردت الطير، بعد أن فقدت الجسر، فصبّ إلى الأمام.. أما
إذا صوبت إلى الطير نفسه فالاجنحة التي خضت دماءك، تجعل كل شيء
ماضياً. تتناثر حبات الخردق في الريح، مثل طلقات احتفالية لوداع
المسافرين.. اضرب الف متر أمام الطير، ولا تضرب عليه. إذا ضربت
أمامه امتلأت رثاه بالدخان، بالفزع، بتلك الرجفة المميتة. وحتى
لو انعطفت أجنحته وتحول مثل موجة، فالفزع لن يفارق عظامه..
وسيموت. أسمع ما أقول لك أيها الأبله؟ أبدأً إلى الامام، لو فعلت ذلك
لعبرت الجسر، ولكانت الجنية الآن ترقد تحت قدميك، لكنك لا تعرف
شيئاً أيها الأبله. سألت نفسي بمرارة: ولكن كيف أفلتت المجوسية؟

وبدأت أتذكر من جديد: التهبت الدماء في عروقي وغام كل شيء،
وفي تلك اللحظة سلمت جناحها للريح. كنت أفكر بالجسر والهزيمة عندما
افلقت الزانية. قلت لنفسي: لم تكن طيرا ولم أر في حياتي مثلها. كانت
جنوناً صامتاً أول الأمر، ثم انفجرت. دوت بروح شريرة وسبقت الريح.
أما البندقية فقد اهتزت في يدي، ثم ارتفعت كراية المهزومين، وارتجفت
أكثر لما صوبت.. وانتهى الأمر كله، كأنه لم يكن. نسيت وصايا
المجوس، ولم أعد أتذكر أية الهة يمكن أن تسند بناي الذي هوى!

قلت لوردان وأنا أرفع رجلي عالياً، لأتجنب بركة ماء كبيرة وسط

الشارع:

- انتبه ، انتبه جيداً ، المفاجأة عدو الانسان ، قلت لك انتبه ، لكي لا تبتل وتشتمني !

وفكرت : الصيد شيء رائع ومقدس ، ويجب أن أبتدع كلمات لها موسيقى حنونة لتصبح مديبة ومسنة كالحجارة ، وتحطم رأسي . قلت في سري : الصيد صيد وللرب أعمال أخرى !

لكرت وردان بركبتي ، وابتسمت بتلك الطريقة الهازئة . قلت لنفسني بأسى : إذا فقد الانسان توازنه يأتي هاجر الفعل والكلام . بصقت بحقد لما وجدت نفسي أبحث من جديد عن تلك الكلمات الرديئة البلهاء . رنت كلمة «هاجر» في رأسي مثل عملة مزيفة . قلت بصوت عال :

- لتقتل جميع الكلمات الكبيرة ، خاصة الكلمات المكتوبة بخط الثلث والخطوط الستة الأخرى ، ولتقتل الأفكار المصابة بالجرب .. لأنها قادتنا إلى الهزيمة !

قلت لنفسني : يجب أن أكرس البندقية أو أعطيها لراع لا يجلل جسده سوى ثوب ممزق ، لأن الانسان الذي لا يعرف كيف يستعمل البندقية يشبه ذئباً ميتاً !

وبدأت استعيد خطوات الأمس الخائبة : عيون مهترئة تنظر إلى الداخل ، أشجار الحور العارية الضعيفة تقف إلى جانب المستنقع ، ناحية الشمال ، كأنها مغروسة دون جذور ، الماء الاخضر ، في النهر المجاور ، تسيل طبقتة العليا وحدها .. وفجأة ..

لا .. لم تكن الأمور هكذا !

كانت ريح باردة تتخلل الاغصان ، تصرخ في آذانها وكانت الطبيعة كلها في معركة صغيرة بأصواتها المتداخلة المهمة ، حتى لتصبح دويماً صامتاً . لا .. كانت الاصوات تقفز كالجنادب ، كانت تسمع بوضوح زائد ، وكان اختلاطها يمنح للدوي الداخلي تدفقاً متهوراً .. وفي تلك اللحظة كنت

افكر. يداي مندليتان برخاوة ، وصوت في داخلي يهمس بحلمين متوازيين .
كنت أرى بريقاً أخضر يتموج كأنه حقل حنطة تضربه الريح . وكنت أرى
الجزيمة حفرة مليئة بالوحدل تشدني . كنت أنظر إلى الافق . نظرت مرات
كثيرة نحو الغرب .. رأيت حيننا ونتفا من غيوم في سماء بعيدة وباردة ،
ورأيت أطراف الاشجار .. وفجأة ..

لا .. ان شيئاً آخر كان يحصل في تلك اللحظة :

المياه تنزلق بهدوء ، كما لو انها طبقة شفافة فوق رخام أخضر ..
كانت تنزلق بدوي صغير أقرب إلى الوشوشة ، والريح تعيقها لحظة صغيرة .
كنت حزيناً في تلك اللحظة . كنت في عالم كئيب يدثرنى أكثر من ثيابي .
نسيت البندقية التي كانت ترتاح في يدي اليمنى ، ونسيت الطير . كنت
أمشي مثل قط أعمى ، اداري أحزاناً تطفو على روحي مثلما تطفو الرياح
في ذرات الهواء .. وفجأة دوت ..

اختلط الدوي بالماء والفرع . أحسست عرقاً بارداً يغسلني كما لو انه
ينفجر في داخلي ، رفعت البندقية ودوت الطلقتان . نسيت الوصايا كلها . لم
أسدد . لم أر شيئاً . فجأة انبثق الرعب في وجهي ، واكتشفت اني خائف .
أما البندقية التي رميتها بغضب يائس ، والسيجارة المرتجفة ، التي حاولت أن
اثبتها بين شفطي .. كان كل ما فعلته تعويضاً أخرق لأثبتت أجزائي التي بدأت
تتناثر !

صرخت بكفر :

- وأنت يا ابن الزانية .. ما أنت .. جسر أم بطة ؟ ومسحت عن
جيبتي وملاسي الوحل والمياه الكدرة التي انتشرت بعد أن مرت تلك
السيارة الكبيرة . لم أر بركة الماء التي كانت أمامي . لورأيتها لتوقفت ،
لابتعدت .

كان النور المبهز يخترقني . بدأت أتلمس بعيويني الأخرى الطريق ، لكي

لا تدهمني السيارة ، وفجأة رأيت المياه تصفعي . كانت صفة المياه في الحالتين واحدة . قلت بأسى :

- المياه مليئة بالبط والجسور التي تلطم الانسان دائماً .

ولا أدري كيف فكرت بالهزيمة . بدت لي ثقيلة وجارحة . قلت بصوت عال لأبدد الخوف :

- الكبار .. الكبار هم الذين يخلقون الهزائم .. والصغار هم الذين يموتون . لو كنت أملك دابة هل يجرؤ هذا الوغد على التحدي ؟ لو كنت أملك شمساً تخترق الظلمة بضوء نيزكي مذهل هل يجرؤ هذا الوغد على التحدي ؟

بصقت . أحسست جزءاً من اللعاب يستقر على أذني . انتفضت ، كما لو أن اهانة سكنت دمي . مدت يدي لازيله . قلت بحقد :

- أنا رجل مخصي . مخصي حتى الثمالة !

وفكرت بالخيبة ، أحسستها تحز رقبتي ، ولها كثافة أيد لئيمة . قلت في نفسي : الخيبة تولد كل يوم ، تنبثق مع شروق الشمس ، ومع ارتفاعها تتمدد ، بفعل الحرارة والرخاوة ، وبفعل ذلك الاستسلام العاجز .

قلت أخاطب شيئاً مجهولاً :

- العجز يسري في الدم ، وسيأتي يوم لا ينسل رجال هذه الامة إلا الاقزام والمشوهين .. والاقزام والمشوهون لا يعرفون الا أن يموتوا رخيضين !

بصقت بحقد وقلت :

- أنا زكي نداوي .. العجز في دمي ، البلاهة في دمي ...
ولا أستحق شيئاً !

ويأس تابعت أقول لنفسي : أنا رجل مخصي ، والطيور.. خاصة
البط ، تعرف ذلك !

كانت ابتسامة بائسة تنزلق على شفتي وأنا أتحمس ديوك السمن .
قلت بتعزية رخيصة :

- ديوك السمن طيور ملكية .. والاناث لها أبهة أميرات رشيقات !

لكزت ووردان وقلت بخبث :

- قل شيئاً لربك المخذول ، لم نبق إلا أنا وأنت يا ووردان ، هل
قدمت لي العزاء بطقس ذليل لأشعر أنني ما زلت مهما.. وما زلت أحياء؟
وفكرت : ووردان حيوان شديد الذكاء ، وربما أذكى من بشر
كثيرين ، ليس ذكياً فقط ، انه حساس .

التفت اليّ ووردان ، وكأن هاجساً في داخله فضح الكلمات الداعرة
التي تتسرب إلى ذاكرتي كمياء المطر . ارتفع قليلاً كأنه يريد أن يتأكد .
رأيت لسانه يمتد اليّ فجأة . قلت بصوت أرعن :

- نحن اخوة يا ووردان ، نعم نحن اخوة ، وفينا شيء مشترك ..

صفات مشتركة !

وأصّر ووردان أن يرتفع . قلت لنفسي بخوف : إن هواجس ووردان
تقلقني . صرخت لأتغلب على الخجل وأبقى مسيطراً على ووردان :

- أتتهزأ مني أيها القرد الاسود؟

أنزلت رأس ووردان بقسوة ، وضغطت . خرج صوته أقرب إلى
التنهد ، وتكوم من جديد .

كانت أضواء باب شرقي تقترب . كانت تنصب على اسفلت الشارع
برخاوة عاجزة ، وكأنها تشعرني بهزيمة من نوع ما . قلت وأنا اصلح جلستي
فوق المقعد ، لأبدو فخوراً بشكل ما :

- الخيبة جبل قصير، ولن تفلت مني الا فعى مرة أخرى!
كانت ديوك السمن تتدلى على جنبي في الجهة الأخرى، المقابل
للبنديفة، وكان وردان يمد رأسه باستطلاع خائف، وكأنه أحس بذلك
الحصار الذي يولده البشر!



الفصل الثاني

- أريدك يا وردان أن تصبح حجراً. نعم.. أن تصبح حجراً. وهذه
العرشة المهتاجة التي تعبر عن جنون في داخلك يجب أن تنتهي. أسمع
ما أقول لك؟

قلت لنفسي: أعرف انه حيوان أبله، محموم، وفي داخله شيء
يغلي، لكن الصيد هو الصيد. طبطبت على ظهره، وقلت:

- لا افكر لحظة واحدة في اهانتك يا وردان.. لا.. لم أقصد
ذلك أبداً. أنت تعرف كم أحبك، لكن الأفعى الطائرة جعلتنا ديدانا
عمياء.. أتذكر كيف خفقت بأجنحتها؟ أنت لا تتذكر أبداً. اسمع..
ارتجفت أول الأمر. ثم أمتلأت زهواً، ثم ركضت فوق الماء، وربما
اطلت إلى الخلف قليلاً.. وأخيراً مدت أجنحتها في الهواء.. وأنت.. تدلى
لسانك لما رأيتهما، كما لو انك ترى كلبة، كانت اعظم كلبة في هذه
الدنيا.. أتذكر؟

واستعدت الصورة المجنونة كلها. قلت لنفسي بلهجة حازمة: علينا
أن نتحول إلى عفاريت لا تعرف التسامح، نفكر بحذق، تماماً كما تفكر
الثعالب.

أتذكر أمس كيف أن الافكار السوداء المهترئة غزت رأسي ، كيف
حولته إلى غربال في لحظة خاطفة .

قلت لوردان بصوت جليل :

- علينا أن نفعل شيئاً يا وردان ، فأنت تتذكر عندما طارت ..
شعرت بالدنيا تنسحب إلى الخلف ، تتراجع ، والطلقتان .. آه ما أشد بذاءة
الانسان في بعض اللحظات . لقد تحولت إلى كلب يا وردان . لا تفهم من
كلماتي أية اهانة . هل نسيت يديّ اللتين تمتدان اليك بالماء ؟ عليك أن
تشرب بهدوء في المرات القادمة ، فأنا لا أحب طريقة شريك الهوجاء . كان
لسانك الخشن يحتك ببطن يدي ، فأحس حكة تجعلني لا أقوى على
التماسك ، اضافة إلى أن الماء كان يتسرب من بين أصابعي ويضيع .. أما
عيناك الهرمتان فكانتا تقولان كلمات رديئة بحقي ، وبعض الأحيان تفكران
أن تفتكا بي . إذا اردت أن تشرب من هاتين اليدين فعليك أن تكف عن
هذه البلاهة !



المساء يزحف ، بعض الطيور تلمع في الهواء البارد .. قلت لنفسني :
الطيور مخلوقات جسورة ، وتختلف عن الانسان ، فهي لا تتخلى عن
أعشاشها . لكن ما هو العش ؟ أجبت بأسى : العش وطن الطير .. أما
البشر ..

وبصقت . قلت لوردان بصوت عال ومحكم :

- آه لو رأيت أبي يا وردان ، لو عرفته لأحبته كثيراً . حتى ضرباته
ستحملها بصبر . ثم أنا ابنه ، وأنا أضربك ، هل تكرهني يا وردان ؟ يجب
أن تقول لي كل شيء .. فأنا لا أحب أن يمتلئ صدرك بالحق . قل لي كل
شيء يا وردان .

وفكرت : الحيوان ، خاصة اذا كان طيراً ، أفضل من الانسان آلاف
المرات .

قلت لوردان :

- كان أبي يا وردان يحب الأرض والحيوانات ، وأنا لا أشبه
أبي ، لا أشبهه أبداً !

وامتلاً رأسي بصورة ابي . قلت لوردان :

- لن أقول لك كل شيء عنه ، ولكن دعني أقول ما أريد ، ثم
لا أحد يجبرني ، وحتى لو قلت لك فأنت تهز ذلك وتتراكض ، أنت
لا تحب أن تسمع ، أنت كلب رديء ، ومع ذلك يمكن أن تفهم بعض
الاشياء .

قلت لنفسني : وردان يستحق اللعنة ، ويستحق ضربات قوية في
بطنه ، فهو لا يكف عن الحركة ، ولو كان أبي حيا لشنقه ، لكن أبي
مات .

قلت بصوت عال :

- اسمع يا وردان .. ما دمنا أصدقاء لهذه الدرجة فيجب أن تعرف
شيئاً عن أبي ، ثم ان الوقت أمامنا لا يزال ممتداً كالجسر .. أتعرف معنى
الجسر؟ اسمع هذه الكلمة جيداً ولا تنسها أبداً . ماذا قلت لك؟ البطة
أو الجسر؟ لا .. ما أعنيه الجسر ، الجسر ، أتفهم؟ اسمع يا وردان :

كان أبي ، وهو يرقب السنونو تنغرز من السماء لتدخل تحت سقف
الحوش ، بين العمودين الخشبيين ، كان يرفع جذعه ويعتدل ، ويهز رأسه
بتلك الطريقة اللذيذة والحكيمة ، ثم يبدأ يحدث نفسه ، ولا يعنيه أن كان
من حوله يسمعه :

« هذه الطيور تدور العالم كله ، لكنها لا تنسى أعشاشها أبداً . سبحان
الله ، ما أذكاهما وما أحبها . »

كان يروق لأبي يا وردان أن يشهد رحلتها كل يوم طوال الربيع ..
وفي العتمة المتسربة من الهواء والاشجار! وتحت تلك الدالية الزاهية
بأوراقها الجديدة الرائعة الخضرة، كان يلف سجايه بيديه، ويجعلها
أكواماً.. ويقول لأحد لا يقصده أبداً، وبعض الأحيان يكلم نفسه
أو الاشجار الصغيرة في الحوض الذي أمامه :

« - كوم الساعة .. وكوم الغد» .

ويواعد بين الاكوام. يصفها بشكل متعارض. فاذا انتهى أخرج
علبته المعدنية وصف فيها الكوم البعيد، والذي سماه كوم الغد، بترتيب
متقن، ثم يغلق العلبة باحكام، ويتابع وهزات رأسه تسبق كلماته :

«- الغد أهم الأشياء.. الغد ما سيكون» .

ويضع العلبة في جيبه الداخلي ويربت على سترته ليتأكد انها استقرت
هناك، فاذا اطمأن، سحب من الكوم القريب سيجارة وأشعلها بهدوء،
ويعد الانفاس الأولى يخاطب نفسه :

« - كوم الساعة .. كوم الشيطان .. يحترق بسرعة ويصبح

كالماضي !»

- هكذا كان أبي يا وردان يقضي ساعات الغروب .. لا .. هكذا
أصبح لما تقدم به العمر.. وعلينا أن نعمل مثله. كان أبي حكيماً
يا وردان. كان حكيماً رغم اعتراضات أمي وصخبها. كان يقول أشياء
تدخل إلى القلب مباشرة. لم أكن أفهم كلماته كلها. كنت أحرار فيها،
لكن كنت أراها تعني شيئاً مهماً، وربما كانت الطريقة التي يقول بها
الكلمات تجعلها أكثر حكمة .

لم يكن يعبأ باعترضات أمي، ولا يغير طريقته .. وأنا .. لا أعبأ
باعترضاتك يا وردان، أرى رفيف عيونك المتعبة، وأرى لسانك، وأرى

كل ما تفعله من بداءات. لا تظن أنني لا أرى ، ولكن يجب أن تسمع كل ما أقوله لك .

كان صوت أبي يحافظ على نسق من الرتابة والهدوء لا يمكن لاحد أن يغيره. أما مقاطعة أمي وكلماتها النابية فكانت تضيق في الصمت ، حتى اذا انتهت من صخبها ، عاد يتابع وكان شيئاً لم يحدث : نفس الصوت ونفس النبرة. كان يتابع من حيث توقف .

كان يظل كذلك حتى تبدأ تلك الطيور السوداء اللعينة تتقاطع في الهواء ، وأصواتها تكثُر خالقة احساساً ملهوفاً بالنشوة الحادة. عند ذلك يصمت ابي يا وردان. كان يصمت وقتاً طويلاً ، ولا أكذب عليك يا وردان اذا قلت لك انه كان يتحول في تلك اللحظات إلى عيون كبيرة لا تتوقف عن الحركة ، ويتملكه شعور الاندهاش ، حتى ليبدو غائباً عن كل ما حوله. فاذا هزته أمي لسبب من الاسباب ، لتخرجه من ذلك العالم ، ينتزع نفسه بصعوبة. يلتفت اليها ويقول :

«- أريد أن أفهم سر هذه المخلوقات العجيبة.»

«- عدت إلى عالم المجانين؟ قلت انك لن تفكر بالطيور بعد ذلك اليوم.. أراك عدت اليها الآن..»

ويهز رأسه بأسى ، لكن كلماتها القاسية وهي تتساقط عليه تجعله يستدير قليلاً لينظر اليها. كان ينظر بعتب يمازجه الضيق ، فاذا تركته عاد لطيبوره يتأملها ويتابعها، أما اذا ظلت فوق رأسه ، يعتدل ، ثم يسحب سيجارة ، وبعد أن يولعها يسأل بطريقة تثير أمي :

«- طلقت الضرة ولن أعود اليها مرة أخرى.. هل تريدن أكثر من

ذلك؟»

«- نفسك فيها.. وجهل الشيب أصعب!»

« - ولكن ماذا تريدان الآن؟ »

« - قم .. عليك ألف عمل »

« - اتركيني الآن » .

« - أما قلت لك انك لن تتركها ! »

وإلى هذا الحد يحتمل أبي . اسمع يا وردان ، اسمع جيداً . كانت عيناه تكتسبان بريقاً غاضباً ، تدرك أُمي إلى أي مدى يمكن أن يحتملها ، فلا تلبث أن تقول بضعة كلمات وتمشي . أما هو فيعود إلى علله الزاهي الذي لا يتغير أبداً : عالم المراقبة النشيطة الحافلة باللذة والاندهاش . وفي مرات قليلة كان يقول كلمات أحس لها طعماً حكيماً دون أن أفهمها ، كان يقول :

« - الطير الذي لا يعرف عشه ، يستحق أن يضرب بالحذاء حتى

يفت » .

- أسمعت ما كان يقوله أبي يا وردان؟ يجب أن تفهم ذلك

جيداً .. هل فهمت؟

فاذا سأله أحد عما تعنيه كلماته ، يلتفت بكليته إلى سائله ، يتمعن

فيه كثيراً ، كأنه يقرأ في وجهه كلمات مسطورة ، فيقول :

« - الحبارة والقطاة .. نعم الحبارة والقطاة أيهما أدل؟ »

ويروي تلك القصة الحكيمة .. قصة الرهان الذي جرى بين جماعتين

عن الحبارة والقطاة .. الجماعة الأولى .. يا وردان ، تقول الحبارة أدل ،

والجماعة الثانية تقول القطاة أدل . ولم ينته الرهان الا بعد أن نصبوا رمحاً

في الرمل ، بعد أن باعدوا بين بيضتي قطاة ، وثبتوه هناك . كانت الظلمة

تمتد مثل غيوم ثقيلة فوق الكائنات ، والرجال في مكان قريب يرقبون

صامتين .. وفجأة ، وسط هذه الظلمة الفاحلة الصلبة ، سمعت تلك الصرخة

الحادة القصيرة .. صرخة القطاة التي شكت فوق نصل الرمح .

«والحبارة.. ماذا فعلت الحبارة؟» هكذا يسأل أبي.. وأنت يا وردان سوف تسأل كأبي حيوان أبله. أتعرف كيف كان يجيب أبي؟ كان يمتلئ وجهه بضحكة صغيرة أقرب إلى الاسى، وهزات رأسه تتوالى بحزن ويقول:

«- أما الحبارة فقد تركوا بيضها في مكانه.. لما جاءت نزلت بعيداً عن بيضها، ثم درجت حتى وصلت.. هذا هو الفرق بين دلالة الحبارة والقطاة.»

ويصمت أبي يا وردان.. لا يريد أن يضيف كلمة واحدة!

ويجب أن تفهم كلمات أبي الحكيمة يا وردان.

لقد ترددت هذه القصة على لسانه مرات كثيرة، ولم يخطر لاحد أن يسأله ذلك السؤال الذي قذفته أمي في وجهه ذات ليلة، بعد أن ضاقت روحها من القصة:

«- أنا لا افهم بالطيور، لكنني متأكدة من شيء واحد!».

كانت تريد أن يسألها، لكنه نظر إليها بسخرية ولم يقل شيئاً، حتى إذا آذاها صمته، قالت بحدة:

«- الحبارة أدل من القطاة ألف مرة. الحبارة أدل وأذكى، ونعرف ذلك لأنها لم تمت.. أما قطاتك فأين أصبحت؟»

وتنظر إلى أبي بتحد، لكنه لا يجيب. فيزداد غضبها. تقوم فتقف فوق رأسه وتهز كتفه برعونة، حتى إذا نظر إليها تقول كلماتها الأخيرة وتمشي. كانت تقول:

«- تظن ان الحبارة لا تعرف بيضها؟ لا.. انها تعرف قسوة البشر

ولا تريد أن تموت!»

«- الطير الذي لا يشك على عشه، على بيضه، مثل القطاة، لا هو

طير ولا يستحق الا البول فوق رأسه!»

ويصيب صوت أبي خدش حزين فيغيره . ينتفض وكأنه شعر بضعف موقفه ، ويضيف :

« - لكن مع ذلك الخير في الحبارة » .

وتعاود النبرة الأولى صوته فيقول :

« - الطيور الحذرة تقع أكثر من غيرها ! »

- هذا ما سوف نفعله يا وردان . سنربض الآن مثل ديدان ميتة ، حتى اذا جاءت نقض عليها كالرياح . سوف نمزق جسدها من الطلقة الأولى . نعم الطلقة الأولى ، أسمع ؟

أما أبي فكانت تطوف الذكريات في رأسه ، ولم يكن يوح بها . كانت عيناه تتحولان إلى شعلة من الحركة الخفيفة المغزولة وهي تتابع السنونو ، حتى إذا بدأت تشكّ تحت الامتداد الطيني للسطح ، وراء الدالية ، مثل رصاصات سريعة ، كان يقول :

« - مباركة هذه التزلات المظفرة .. نزلات لا تخطئ ولا يمكن لاحد

أن يمنعها » .

فاذا سمعت أمي هذه الكلمات تقول من بعيد ، وهي تتحاشى

الاقتراب :

« - انصب رماحك لتتشك هذه الطيور فوقها ، وتوفر لنا عشاء

الليلة » .

كانت تشغل بأشياء تفعلها ، لكن لا تتركه يفلت من نظراتها ، وتتوقع ان تسمع كلماته ، حتى اذا ران صمت طويل تسأله من جديد :

« - ماذا تقول يا رجل ؟ »

ويسألها بنغمة هازئة :

« - عن أي شيء تسألين ؟ »

«- لماذا لا تنصب رماحك حتى تنزل هذه الطيور فوقها؟»

ويمتلئ حلقه بالضحك وهو يسألها من جديد :

«- وهل تؤكل هذه الطيور؟»

تقترب منه هذه المرة للتأكد ان ما يضحكه ليس سخرية فقط ، حتى إذا التقت عيونهما ، قالت من جديد بتوسل أخرس :

«- تؤكل أو لا تؤكل .. كل ما أريده نهاية هذه المصيبة» .

ويختم أبي حواراه مع أمي بحكمة ظلت غامضة بالنسبة لي سنين طويلة ، ولكن صمت أمي يجعل هذه الحكمة صائبة وشديدة الاثر . كان يقول لها :

«- من لا يعرف الطير يشويه !»

في وقت متأخر فهمت ما كان يقصده أبي يا وردان .. كان يقصد الطير الحر .. هل فهمت ؟

كان أبي حكيماً يا وردان . لا تهز ذلك كأفعى . قال أبي إن الانسان داهية بين مخلوقات الله جميعاً . أنا داهية حليق الرأس ، يا وردان . أما أنت فتبقى كلباً محموم الجسد . أتعرف ماذا أريد منك ؟ أن تتحول إلى حجر .. منذ ساعة أحدثك عن أبي لكي تصبح حكيماً بشكل ما .. لنستطيع أن نقبض على الزانية . أتفهم ؟ ارقد حتى تأتي ، أبي قال : «كل الطيور تعود» لا يهمني أن تهبط مثل قطة أو ان تدرج . انا مقتنع انها ستأتي . نعم ستأتي إلى هنا مرة أخرى ! ستهبط فوق هذه البقعة . أتعرف ماذا سنصنع ؟ سنرقد بين الاغصان دون حركة ، تماماً كأننا موتى .. لا .. سنكون مثل السلاحف ، لان السلاحف تشبه الحجارة ، حتى اذا رأيناها تأتي وتستقر فوق الماء ، أفتح عليها نيران الجحيم . أبي قال الانسان داهية . أنا داهية يا وردان . عقلي يشتعل بآلاف الافكار .. لكن الجسر جعل أفكاري تتداخل لدرجة لا أعرف كيف اتصرف .. وجاءت هذه الزانية الآن

لتبصق عليّ، لتحول افكاري إلى طحالب لزجة .. أنا لست داهية
يا وردان .. أنا مجرد معتوه .. ومع ذلك فالزانية لن تغتلبني !
وأنت .. يا وردان، أتعرف كيف ترقد بلا حركة؟ لا أريدك أن
تنفّس، املأ خياشيمك بحفنة من التراب وارقد. أما الحركة المجنونة .
الغليان الذي يتفصد منك ، كما لو أنك مع سرب من الكلاب السائبة .
تلاحق كلبة قدرة ، فاوقفه ! إذا تحرك ذلك سوف اقطعه . أما إذا خفقت
بجسدك كخرقة بالية ، فسوف اجعلك لقمة للجرذان . تعلم الطاعة أيها
الجرذ المدلل .. ألم تقف ذاك اليوم أمام جرد يسحب بفمه الخائف أوراق
الحظ؟ هكذا تكون الجرذان الانيسة ، الجرذان التي تعيش مع البشر، أما
السائبة ، التي تتراكم في المواني وعلى الارصفة فلا تعرف معنى الشرف .
وأنت .. لست كلباً سائباً .. كل ما أريده منك ان تتحول إلى حالة السكون
المطلق .. وبدلاً عنك سأحوض في المياه الباردة لأنتزع البطة عندما تهوي .
لن أكلفك عناء انتشالها .. أريد لهايتين اليدين أن تلتقطاها . اسمع يا وردان ،
في هذا اليوم البارد لن أجعلك تبتل وتتعب . ارقد الآن في هذه الحفرة
الليثية ، تصور نفسك نائماً .. الا تعرف كيف تنام؟ لا أنوي اهانتك .
وأعتبرك كلباً حقيراً ينزلق عليك النوم برخاوة .. نم وحدك . هذا كل
ما أريده . لا أطلب منك حراستي أو مساعدتي . لا تقرب حتى لو رأيت
الافعى . ولكن أريدك أن تنام فقط في هذه الساعة المشؤومة .. ساعة
وصولها . وإذا أردت افتح عينيك لترأها مقبلة . تنفس بعمق قبل وصولها .
ولكن إذا اقتربت لا تتحرك . اصمت كحجر . حوّل انتفاضك إلى
الداخل .. لكن دون أن تهز الاغصان !

آه لو أنك رأيت أبي يا وردان . لو سمعته يتحدث . كان قاسياً
كجدار المسجد ، وكان حنوناً . وأنا .. ألم اقسم الاكل بيننا عشرات المرات؟
ألم اعطك بعد القسمة أشياء كثيرة؟ لا تتصور الاوهام حقائق راسخة .. لم
أكن أخاف نظراتك وهي تحاصر في . أما لسانك عندما يتمطى في الهواء ،

فكان يدفعني لأن أشفق عليك وامحضك مزيداً من الاكل. ألقى اليك بكل شيء.. بالخبز، ببقايا الرز، بالعظام قبل أن اعرقها جيداً.. وتأكل.. وتأكل. هل نسيت ذلك يا وردان؟

والآن.. الا تستجيب لطلب صغير؟ ارقد من نظرة، كما كنا نفعل لما كان أبي ينظر الينا. كانت نظرات أبي طوفانا ملتها، ودون كلمات تنزلق حتى لا نكاد نحس بوجودنا. أنت، حتى الآن، لا تعرف معنى النظرة، ولا تعرف معنى الرجاء والتوسل. ما زلت كلباً مثل جميع الكلاب. إذا لم يزل ذلك الصوت، تظل تقفز، تدور، تصفق بجلدك كبيرق مهترى. قل لي أيها الكلب نصف السائب.. ماذا تستفيد من هذه الحركة البلهاء؟ آه لو استطيع أن أصبرك مثل كومة ملح. اسمع.. لن أصرخ، سوف أشير إلى الحفرة، وأقول لك: هنا سنجلس. سنبقى كالأوتاد. لكن الشياطين تلعب في داخلنا. نتنظر، نحرك عيوننا بتلك الطريقة الفائقة الذكاء، نكتم أنفاسنا، حتى اذا جاءت، ومرت فوقنا، بأجنحتها الرخوة، المناسبة كشرع وصل ميناءه الاخير.. أمد البندقية. سوف أمدها بهدوء عجيب، أسدد، ثم اقطع أنفاسي.. وكأله مليء بالصبر أنتظر اللحظة المناسبة.. وتنهار.

نعم سوف تنهار يا وردان. كجدار الوحل ستنهار. ما أشق هذه الساعة، ما أشد فتونها. ألا تحب أن تشهدا؟ انتظر اذن. لتملأك سكينه مميته. بعد أن نظفر أمد اليك الماء بيدي، أقول لك: العق كما تشاء أيها الكلب المبجل. لن أشمك. ولن أحتج عندما يتدلى لسانك الخشن في راحة يدي. أما العظام والخبز فابشر.. انتظر وسوف ترى بعيني رأسك!

أتسمع ما أقول لك أيها الثور؟ ماذا لو ربطتك إلى شجرة بعيدة؟ أتخشى الوحدة؟ الضجر؟ أتعوي حتى تفرغ الحشرات والضفادع وكل شيء؟ يجب أن نتفق يا وردان!

آه لو رأيت أبي ، كان يحب الطيور الشريرة ، كان لا يتعب من الركض وراءها . ولكن هل عرف أبي جسراً كالذي عرفته ؟ لو كان أبي حياً لسألته . مات أبي يا وردان . أما الطيور فكان يقول لها أشياء ساحرة . كان يهزها في الهواء ويخاطبها كما لو أنها لا تزال حية وتفهم كلماته . لم يكن أبي يفعل ذلك مع الطيور فقط . كان يخاطب الحيوانات بنفس الطريقة . يخاطب الفرس بنفس الطريقة التي يخاطب بها أمي . وكذلك الثور والقطة . ومع ذلك لم يكن يحب الكلاب . لو رآك الآن لبصق في فمك ، ولكانت حجارته تلاحقك .. أما عصاه ، عندما تطير في الهواء ، مثل البروق ، فكانت تصيب كلباً دائماً . كان يقول ... ولا تغضب من كلمات أبي يا وردان :

« - عقول الكلاب في خصاها . ليس ذلك فقط ، لماذا لا يتوقف نباحها ؟ آه لو انها تفعل شيئاً غير أن تنبح ! ما أتعسها ! ألا ترى أصوات الخيول كم هي عزيزة ؟ والثيران والقطط ؟ انها لا تصرخ الا لتقول شيئاً ! » .

كانت الكلاب لا تقترب من دارنا الا لتقف قليلاً ثم تتابع مسيرتها قبل أن يصل أبي . كانت تعرفه فلا تقترب منه . وإذا رآته هربت إلى مسافة بعيدة . أما أمي فكانت تغريها بالعظام التي ترميها . وكان هذا يسبب خلافاً بين أمي وأبي لا ينتهي !

كان يجب أن ترى أبي يا وردان . هل تجرؤ على الاقتراب منه ؟ هل تنبح كمجنون ؟ ان نظرة واحدة تشقك إلى نصفين . وحتى لو رأى أذنك المهتلتين ، وقالوا له « كلب صيد » فلن يقتنع . كان يعامل كلاب الصيد بطريقة خاصة . كان يقول انها لا تشبه الكلاب أبداً ، لكن يتساءل وكتفاه تهتران بسخرية :

« - في الصيد الحقيقي الكلب للصيد حمل ثقيل ، يجب أن يحمل

له الماء. أن يصرخ عليه بين دقيقة وأخرى لكي لا يضيع. أن يحميه من الكلاب القذرة. لماذا الكلب اذن؟»

لتشملك سكينه شديدة القداسة، أيها الحكيم الميت، يا أبي!
ما أريده منك يا وردان.. أن ترقد. أن تتجمد. لكنك لا تفعل.
ماذا أستطيع؟ هل أصرخ عليك بتلك الطريقة الوحشية لأصبرك؟ لاجبرك على أن ترتمي على الأرض بذل؟ ولكن إذا ارتميت لا تكف عن ترقيص ذيلك عن الاهتزاز مثل الدراويش أو المصابين بالحمى. تنقلب. تعوص بطريقة متألمة راجية.

أريدك يا وردان أن تصبح حجراً. الحجارة لا تتحرك. لا تغير أماكنها. لا تصرخ. ولا ترفع ذيلها لتتوسل!

وردان أنت حجر، ولكن هذه الفتاة لا تحب أن ترى غيرها يتألق في الهواء. غط نفسك بالاعصان الجافة، بطبقة من التراب، وانتظر. افعل كما أقول لك. اما اذا تحركت في اللحظة المدمرة، لحظة وصولها، فتأكد أن عصا أبي، التي تلمع في الهواء، ستتحول في يدي إلى طلاقات تستقر في عظامك، وتجعلك سلحفاة ميتة. لن أشفق عليك. لن أصنع لك من ريشها وسادة.. أسمع ما أقول لك يا وردان؟ إنني اخاطبك كرجل!



كان وردان يتحرك مثل قطعة ريح، ينتقل بسرعة، يشمشم كل شيء، يبول في كل مكان، يركض بعيداً كأنه فرع. ثم يعود مرة أخرى. قلت له وأنا أمسكه من اذنه الطويلة وأرفعه بقسوة:

- لتتحول إلى صخرة سوداء أيها الكلب المعتوه. أريد منك الآن أن تتعلم درساً واحداً: ان تسكن، أن تهدأ، أتفهم ما أقول لك يا سيد الكلاب؟

كانت عيناه تنظران بخوف، وكأنه فهم ما أردته منه. قلت:

- أتعرف ماذا قال أبي؟ حاول أن تتذكر.. ولكن أنت لا تتذكر شيئاً. اسمع.. ما أقصده لا يمكن أن تفهمه!
أمسكت برجله الخلفية ورفعته، ضرب وجهه الأرض، وامتلاً أنفه بالتراب، قلت:

- آه لو امتلأت رثثاي بالبارود في ذلك اليوم.. لو شممت رائحة البارود لكنت الآن شخصاً آخر. قالوا: لا تفعلوا شيئاً.. تراجعوا تراجعنا.. وتركنا الجسر.

صرخت بوردان وقد أمتلاً قلبي بالغيظ:

- قال أبي يا وردان: «الطيور تعود. كل الطيور تعود.. دائماً تعود» وأمس اذا وجدت الزانية وكرا ونامت فيه، فالיום ستعود!
وتذكرت الجسر. وانتفضت الزانية في ذاكرتي مرة أخرى. جررت وردان وضغطت على ظهره حتى ارتمى تماماً. وربضنا معاً في الحفرة. كنت أنظر اليه في تلك اللحظة بعيون حمراء مجنونة.. وفهم!



الفصل الثالث

... انقضت أيام كثيرة .. والزانية لا تأتي !

الايام لها طعم الملوحة .. طويلة وقاسية .. ووردان أصابه الجنون ، ففي أضواء الفجر ، وفي غبش المساء يخبّ أمامي كقطعة الظلام ، وأرى وجهه الأسود يحوم حول الاشجار ، يخوض في سواقي المياه ، يتوقف لحظات يجيل خلالها نظره في كل شيء باستغراب ، يتشمم الهواء .. ثم يعود !

قلت لوردان في اليوم العاشر ، وأنا أركزه أمامي على الموتور واضغطه بقوة ليتألم :

- يا من يشبه شجرة منخورة ، انك تحمل النحس في داخلك ، تحت الجلد ، كما تحمل امعاءك ، والا كيف نفسر ما يحصل لنا ؟
التوى ووردان تحت ضغط يدي ، كأنه يتوسل . قلت له بطريقة حازمة :

- جربنا حتى الآن أياما كثيرة قبل شروق الشمس ، وها نحن نكفن اليوم السابع في هذا الظلام الشتائي (الأبله) .. والزانية مسافرة ، لا تأتي . أريد أن أسألك . ويجب أن ترن كلماتك كالاجراس ، وتقول لي شيئا واحدا .. أين هي ولماذا لا تظهر؟

ويرتخي وردان . تذوب عظامه فجأة ، مثل عادته تماماً . ينسحب إلى الداخل ، لكي لا يتيح لضغط يدي أن يؤلمه . دفرته بركبتي وشغلت الموتور ، كما لو اني لا أتعمد ذلك . لما أجفل قليلاً صرخت :

- لقد فقدت السماء بركتها منذ أن التقينا .

دفرته بركبتي مرة أخرى . جمع نفسه فأصبح كالكرة . صرخت :

- تمدد كالحبل يا كرة رديئة ، ولترحم السماء أبي ولتباركه . كان أبي يحب الخيل ويكره الكلاب . كان يقول عن الكلاب : « حركة بلا بركة » وأنت يا من أمه ذئبة ، ستبقى منذ الغد في حاكورة الدار ، إذا لم نقبض على آكلة القلوب !

فكرت : وردان يحمل في داخله شيئاً فاسداً ، لو انه طاهر لكان حالنا الآن حالاً آخر .

قلت في نفسي : زكي نداوي طاهرة روحه ، وطاهرة هي الأفكار التي تجول في رأسه .. لا .. أخطئ كثيراً اذا تصورت ، لحظة واحدة ، أن زكي يحمل الطهارة . انه يحمل البذاءة ، الجبن ، الشيء الرديء الذي لا يطيقه الانسان . يحمل الخوف في داخله ويركض ، ويريد أن يقنع نفسه قبل أن يقنع وردان بالقوة والجدارة .

عند المنعطف قفزت دجاجة . قلت بذل :

- يا دجاجات البيوت ، يا دجاجات الناس ، أنت الطير الوحيد الذي تراه عيني . ولتفقاً عيني وليأكلها ذئب أعور .

قلت لوردان بهمس لا يسمعه : أنت يا وردان عنوان لخيبة لا تنتهي .. أليس كذلك ؟ وفكرت : الجسر .. البطة .. ان شيئاً ما فقد توازنه في الطبيعة ، وجعل الأرض ملحاً أسود !

انتفض وردان كأنه يقاوم ريحاً ستأتي. استدار قليلاً ، لاويا رقبته
بالانجاء المعاكس. قلت له :

- أنت تخاف الريح ، تخاف من عيون البشر، من هزات العصا،
وزكي نداوي يخاف من نفسه ، يا وردان. هذا هو الفرق بيننا. ماذا تقول
هل نستطيع أن نحارب معاً؟

وتراءت لي الخيبة التي تنغرس في عظامنا كل مساء، ونحن نعود
بطيور صغيرة لا تملأ راحة اليد. صرخت :

- يجب أن نظفر، وإذا انقضت هذه العشية كما انتهت العشيات
الأخرى، فسوف تظل في الحاكورة، ستظل تعوي كصرصار.. أسمع
ما أقول لك؟

قلت في نفسي : لو تحول وردان إلى قط فسوف نقبض على الزانية
من ساقها. القطط تربض، تبيس بصمت لأنها تعيش من عرق جبينها،
أما هذا المعتوه فانه يتغذى من الفضلات، انه لا يعرف تلك القفزات التي
تعرفها القطط. وما دام وردان بليدا هكذا فيجب أن يقضي ما تبقى من
عمره في الحاكورة يعوي.

قلت لوردان ونحن نستقبل بداية الطريق المشجر:

- كانت الايام الماضية قاسية، حتى أنها لتشبه أيام الصيف، رغم
الريح الباردة التي تهب الآن من جميع الاتجاهات.. انها الآن تهب
بعننة ماجنة.. ألا تراها يا وردان؟

وفكرت : الريح تفتت السخرية في ذرات الكون، وانها نفس الريح
التي كانت تهب في تلك الايام. قلت لنفسي: كان أبي يعرف كل
الاشياء : يعرف ريح المطر، ريح الجراد، وكان يعرف رائحة الموت. قال
أشياء حكيمة في أيامه الاخيرة. لكزت وردان وقلت :

- قد تسخر مما أقوله الآن.. لكن لو رأيت أبي لأحبيته كثيراً. قد
تلقى منه الضربات ، وقد تغضبك نظراته ، لكنه يبقى يعرف كل شيء .
أتعرف ماذا قال لي قبل أن يموت؟ وفكرت : بدا في أيامه الاخيرة شديد
الكآبة ، وصامتاً. كان ينظر في وجهي فترات طويلة ، وكأنه يريد أن يتكلم ،
لكنه يشعر بالتردد أو الخوف .

قلت. لوردان بصوت حزين :

- تستغرب اذا قلت لك يا وردان إنَّ صمت المسنين أقوى من كل
الكلمات التي نسمعها الآن ! انه صمت مدوٍ، يجعل الخوف شيئاً مادياً
ملموساً !

عطس وردان. تحرك جسده كله ، وارتجف. قلت في نفسي :
لو حدثت الاشجار والارصفة لسمعت أكثر مما يسمع هذا الزنديق !
حصرته بين ساقى. شد لحمه إلى الداخل كما لو انه دودة تريد
المشي . صرخت :

- كان المرحوم يقول : « الكلاب كلابات ، وعلى الانسان أن
يتخلص من هذه الحيوانات اللعينة » هل سمعت يا وردان؟
وفكرت : منذ أن تركنا أبي ، أصبحت أشعر بالوحدة والخوف ..
قلت لوردان بتألم قاسٍ :

- لو كان أبي أيام الجسر، يا وردان ، لفعلنا الشيء الكثير!
وفكرت : وردان شمعة ترتجف ، وفي لحظات معينة ينهش القلب
بلذته . وتذكرت وردان لما كان صغيراً. قلت بعنف :

- الحقيقة أكبر منا نحن الاثنين.. وابنة الزانية وحدها تشبه
الحقيقة . أما أجنحتها عندما استلمت الريح فكانت تشبه الجسر. كانت
تشبه بجبروتها وجمالها !



قلت في نفسي : المساء حزين حزين . البرد والخيبة .. وذلك الدوران الأبله !

بصقت ، قلت بصوت عالٍ :

- النملة والحائط الأملس !

اهتز رأسي دون ارادة . فكرت : يحتمل ألا تكون طيراً تلك التي خضت دمي .. لقد فردت شراعين كبيرين ملونين ذلك المساء ، ولا يمكن أن يكونا مثل أجنحة الطيور .. انها العنقاء .. سألت نفسي بجدية وكبرياء : هل العنقاء موجودة إلا في مخيلة المرضى والمعتوهين ؟ أضفت بثقة : والانبياء !
صرخت :

- ولكني رأيتها بعيني رأسي . رأيتها تماماً . وهي موجودة كما كان الجسر موجوداً !

بصقت من جديد . دار رأسي في الفراغ الف دورة .

مددت يدي الى صدري لانتزع هذه القشرة الكثيفة من الحزن . قلت لنفسي بياس : الحزن .. الخيبة ، البحث عن طير خرافي .. أشياء من هذا النوع موجودة .. وغير موجودة . موجودة اذا ارادها الانسان .. وغير موجودة إذا أراد الانسان أيضاً !

وشعرت في لحظة خاطفة ان فرحاً أقرب إلى الريح يغسلني .
انتفضت . قلت بصوت عالٍ :

- زكي نداوي ينهار ويتلاشى !

قلت في نفسي : ماذا لو بنيت سوراً يحمي روحي من الذوبان ؟
صرخت :

- زكي أيها الأبله ، انظر إلى طيور السمن التي تخفق حوائك ،
ولا تفكر بالمستحيل !

وفكرت : يجب أن افعل شيئاً. قلت في نفسي : الجسر بداية ، وأنا معطوب منذ يوم الجسر!

رفعت رأسي ، بدت لي طيور السمن شديدة الروعة. هدر صوتي بقوة :

- ارتفعي أيتها النجوم السوداء، ارتفعي أكثر، السماء الفسيحة تتمدد أمامك بلا انتهاء!

وفكرت : النهاية .. نهاية كل شيء تخلق الحزن ، وأشعر الآن اني حزين. قلت في نفسي : توقف عن هذه الرعونة ، وفكر بالظفر يا زكي ! صرخت بتحدٍ :

- ستطبق عليك الظلمة أيتها الطيور البائسة . وستحولين في لحظات إلى جمرات متقلصة ، ثم تسودين ، وبعد ذلك ستمطرك السماء ، كما لو كنت اشياء زائدة. أتفهمين ما أقول لك أيتها السمات الماربة؟

سألت نفسي : وأنا.. زكي نداوي .. أين أنا؟ أجبت بيأس : أربض في الحفرة ، بين أشجار الصفصاف. أنتظر.

تابعت بلهجة حازمة : لقد تعلمت الدرس : السقوط المفاجئ ، الزقة الحادة ، البحث الملهوف بين الاشواك .. وأخيراً النهاية .. نهاية كل شيء ! ضربت جبيني بيد لثيمة قاسية . كان يأسٌ كاوٍ يجتاح جسدي ويستقر في أعلى الرقبة . قلت بهمس مجنون :

- مثل ذئب جريح أربض . انتظر بلا انتهاء ، ودون تعب ، أما الرشاقة الفخمة ، الارتفاع الساخر ، السواد .. المهرجان الذي ينسحب بأبهة الآلهة .. مع لحظات الغروب المتداخلة ، كل هذا سينتهي ، سينتهي في الظلمة الصلبة الممتدة إلى الخارج كالرياح الباردة !

قلت أحاطب السمات الراكضة في الفضاء :

- ستكونين تحت يدي. أعرف عيونك الزجاجية ، أجنحتك ، سوادك ، أعرفها ، على ذلك البعد الشاهق ، لكن بعد أن تضغط الظلمة بثقلها القاسي ستتحولين إلى وطاويط فقدت الرؤية والنفوس ، ولن يبقى منك الا السقوط الاخرق ، والانزلاق دون روية على أشجار العليق .. أنا أربض هنا.. بانتظار أن تأتي اليّ!

كانت طيور السمن تزقق بتلك الصرخات القصيرة الفرحة ، وهي تعبر السماء ، كانت تطل من ارتفاع كبير على المستنقع وأشجار العليق ، وتتابع طيرانها كالريح الهاربة. كانت بعيونها الحادة تثقب التراب لترى زكي نداوي.

قلت لنفسي : انزل .. انزل كجرذ في الحفرة .
نزلت إلى الحفرة. تدرت بأغصان الصفصاف العارية لأصبح جزءاً من الكون الأعمى . قلت بصوت عالٍ :

- لعلك لن تريني أيتها الطيور المصابة بحب البقاء!
بصقت ، تلفحت بالسكينة والشعور العميق بالذل.
وبدأت الاغنية تدور في رأسي من جديد :

إذا جاء الغروب ، وبدأت الشمس تتوارى خلف الاشياء البعيدة ، ولم يبق الا الشفق المتوهج بغلظته ، والذي يعم قليلاً قليلاً ، سوف تنزلق الطيور تدريجياً. ستتحول الغيوم الصغيرة التي تحلق الآن في الفضاء الواسع ، ستتحول إلى أكداس من الضباب الناعم ..

ستنحدر طيور السمن من ذلك الارتفاع. قد تلتفت ، وتزقق بحدة ، حتى إذا تداخلت الاشياء ، ولم تبق الا بقية كئيبة من النور ، اقتربت أكثر.. ثم هوت فجأة تدرت بالعليق ، بالصفصاف ، بالبحور الصغير على أطراف المياه .

ضغطت على الحروف ليخرج الصوت واضحاً وقاسياً :
- لقد حذقت هذه الطيور صناعة الحياة ، ولا تريد أن تموت بسهولة ، لكن سوف ترى !

ضاق نفسي قليلاً . خفت من الخيبة . قلت للطيور بصوت متزن :
- اقتربي أيتها الطيور المزهوة .. أيتها الطيور الملكية ، لا تخافي .
وماذا لو جنتك الفرع في ساعة النهاية ؟ الطلقة تعربد في الهواء لحظة ثم تهاوين ، كأنك الحجارة .. آه لو تركين لي متعة المجد .. آه لو يستطيع الانسان أن يهنأ بلحظة التصوير ، بتلك المدة المستطيلة ، بالتتابع الحافل .
وفكرت : بعد أن ترتد الأنفاس الممزقة من الانتظار ، وتطل العين إلى المدى الواسع ، المائل إلى السواد قليلاً .. أطلق !
قلت لنفسي : لو ان ذلك يحصل فإن لذة أقرب إلى الالتحام تسكن عظامي !

صرخت :

- لكنك لا تتيحين لأحد أن يملكك .. أنتِ شيء موازٍ للحرية .
قلت لنفسي : الطيور الأخرى تعطي نفسها .. أما هذه الطيور اللعينة فلا يمكن إلا أن تسرق . حتى سقوطها أقرب ما يكون إلى الالتواء المفتون .
آه ما أشد روعة تلك السقطات . كانت قليلة نادرة ، وبعض الأحيان مستحيلة ، لكنها كانت !

الغروب يتكاثف ، بعض الغيوم الممزقة ، كما لو انها غبار بعيد ، تتلاشى ، تاركة لحرمة الافق الارتخاء .. ثم الذوبان . قلت بنزق وبصوت متألم :

- تشبهين الملكة التي أنتظر . لا .. ملكات صغيرات . فراشات الطيور ، زنابق ، إشارات مميتة إلى المفاجأة التي لا يمكن للانسان أن يقبض عليها !

فكرت : ماذا تنتظر حتى تتهوى من ذلك الارتفاع؟ قلت في نفسي : آه من هذه الليالي البائسة ، ليالي الصفاء المغزولة من برد لا يرى . وعدت للتفكير : في هذه الليالي تبدو السماء بعيدة بعيدة ، وتظل طيور السمن مرتبطة بالسماء ، أولعلها متحدة معها . قلت بتحدؤ :
- سأنتظر ، لا أملّ من الانتظار أبداً . وبالتأكيد يظفر من لا يتعب من الانتظار .

بصقت بحقد لما تذكرت ذلك الانتظار ، عند الجسر . صرخت :
- الانتظار ليس كل شيء . ما أحجاجة هو انتظار ملعون ، انتظار يعرف كيف يتفجر .

وفكرت : الجسر لا يزال ينتظر ، انه لا يتعب من الانتظار . قلت في نفسي : الجسر أقوى من الرجال ، وأذكى منهم ، لانه لا يغادر مكانه أبداً .. أما الرجال حين يتركون الجسر فانهم ينتهون !

قلت : وردان لا يعرف الا أن يدور حول نفسه مثل كاهن ، لا يستطيع أن يبقى في مكانه أكثر من دقيقة . قلت بصوت مجروح :
- حركة بلا بركة .. هكذا قال الذي يريض بجانب التل . أبي حكيم ، ومن الصعب أن أعترف بموته .. كما لا اعترف ان الجسر انتهى ..
أسمع أيها الخنزير المشوه؟ أسمع يا وردان؟

قلت في نفسي لما تدفقت الكلمات من لهاتي دون رغبة ودون وعي :
مزموور مهترئ . ما أقوله الآن كلمات غبية تمزقها الريح ، وفي النهاية تغدو كومة من التلوث المشين !

تماسكت من جديد . قلت بكبرياء وثقة زائفة :

- انشد يا زكي نداوي ، أنشد كما لو انك مغني أعمى . الكلمات طريقك إلى النجاة .. وأبي كان يقول «الكلمات دخان .. الكلمات أرجل خشبية .. الارجل التي لا تعرف الوقوف أما الفعل فهو كل شيء» .

قلت في نفسي: الطيور الصغيرة تتابع رحلتها دون أن تحفل
بالكلمات الحليقة، المصابة بالجرب، لأنها لا تعني شيئاً. ما أقوله الآن
مجرد أصوات بليدة.. ومن يقذفها إلى الهواء؟ فم مثقوب.. تدخل إليه
الريح وتخرج منه الكلمات المحنطة!



السماء لا تزال بعيدة، بعيدة ولامعة كأنها لوح من الزنك. صحت
بتحد:

- السماء باردة ومليئة بالوحل!

قلت في نفسي: السماء هي السماء.. أما ما تحت السماء فحيوانات
لا تعرف إلا أن تعوي لكي تعوض عن الرخاوة التي تشلها. خرجت
الكلمات من في بنزق:

- زكي نداوي من الحيوانات الرديئة.. والعاجزة!

وظلت السماء باردة وبلا نهاية. وظلت الطيور تزق في الظلمة
الأولى. قلت أحاطبها بحب أحسسته كثيفاً في قلبي:

- أيتها الطيور السوداء الهاربة.. لن تظلي بعيدة هكذا إلى الأبد.
امتلى الآن صبراً. لن أصرخ على وردان. لن أطلب منه أن يتحجر..
فالسكون المحيّم، والمشرّب بالحزن، يجعل الانسان أكثر شعوراً
بالانحطاط.

قلت في نفسي: لن أتحرك ولن أغير المكان، والطيور ستأتي. ستأتي
الزانية بأبهة الملوك، بشرودهم، بسرعتهم. فكرت: لن يتاح لي أن
أتملكها، وحتى الصرخة الصغيرة التي تقفز من الفم كوداع أخير لن يتاح
لي سماعها.. قلت:

- أريد أن أشعر بالنشوة!

بصقت . اهتز رأسي بحزن . فكرت بآلاف الأشياء لكن الجسر قفز
كغيمة سوداء في وجهي . لم أعد قادراً على رؤية أي شيء . قلت بتحد .
زائف :

- ستأتين أيتها الملكة .. ستأتين وسوف أقتلك ! سألت نفسي : هل
تأتي الغائبة ؟



امتلىء بالحيرة . طيور السمّن لا تزال تغزل السماء بصرخاتها الحادة
الصغيرة . السماء تتناقل تدريجياً . النهر الذي طفرت منه الجنية تتموج
خضرتة وتدكن كما لو أن الظلمة تنبع من الأرض .

قلت بصوت أردته واضحاً تماماً ، وأشرت باصبعي نحو المستنقع :
- هل تأتيين من هنا .. أيتها القديسة ؟

أثصلب كقطعة الحجر . أتمدد أكثر في الحفرة ، كما لو اني حية في
ليالي الشتاء الباردة . أتمدد بهدوء ، وأشجار الصفصاف حولي تترنح بدوي
صغير حزين .

في الافق ، على البعد ، أراها : ثلاث سمّات تتقارب وتتباعد ، كما
لو انها تعزف بأجنحتها . قلت في نفسي : لا تزال بعيدة ، ويجب أن
أنتظر . وفكرت : خفقاتها تسري في دمي ، ولا بد أن تتجه نحو المستنقع .
قلت بصوت حاد :

- ستأتي اليّ وسأضرب الوسطى !

وفكرت : الضربات إلى أعلى رديئة ، فالإنسان يصبوب إلى السماء ،
والضرب من الخلف جبن ، في الصدر بطولة .

بصقت . قلت في نفسي : كان من الواجب أن نموت جميعنا

برصاصات في ظهورنا.. لاننا لم نعطهم سوى الظهور.. تركنا الجسر وحيداً، وكان بصدرة يواجه كل شيء!

كانت أنفاسي تتداخل وتتقاطع . قلت في نفسي : يجب أن لا تخيب الطلقة الأولى، فهذه الطلقة عربون للملكة (الأم). قلت بهمهمات صغيرة مليئة بالحنان :

- انتظري قليلاً يا حبيبتي. تقدمي بنفس الخط. لن أتركك. لن أضرب عندما تصبحين فوق رأسي.. سأضرب قبل أن تصلي.. لا.. سأضرب بعد أن تجتازي أتون الحمى الذي هو قلبي.

وفكرت : الضرب في الصدر.. الضرب في الظهر. قلت بسخرية :
- أية ضربات أريدها؟ أية ضربات تخترق العظام وتحتل القلب؟
أضفت بعناد :

- يجب أن تموت يا زكي نداوي ضرباً بالاحذية، لان هذا ما تستحقه، أما الرمي بالرصاص، الرمي في الصدر، فهو الحلم الذي سيقنتك من الانتظار.. انه المستحيل!

قلت برجاء : لماذا أفكر بهذه الطريقة؟ وما علاقتي بكل ما حصل؟ لو أطلقت آلاف الرصاصات في ذلك اليوم الأغبر، هل يتغير شيء؟ وفكرت : كان يجب أن أطلق الرصاصات الثلاثمائة. لو أطلقتها لتغير شيء كثير، لأن جميع الرجال سيطلقون رصاصاتهم.. وعند ذلك سيحل الرعب، للحظة، ثم تصبح الأمور أكثر وضوحاً. ينتهي الفرع من عيون الرجال، ينتفضون من الغضب، وعند ذلك، لا يستطيع الكبار أن يحكموا الصغار.. الصغار في تلك الساعات هم الذين يحكمون ويصنعون كل شيء!

قلت في نفسي : لشدما أنا حائر.. كل ما أريده الآن سمنة واحدة من الثلاث التي ترحف!

صرخت :

- آه لو كنت أمتلك موهبة النبوءة .

فكرت : في مرات سابقة ضربت في الصدر.. وسقطت . في مرات سابقة ضربت في الظهر.. وسقطت . وفي مرات ومرات خابت ضربات الصدر والظهر .

سألت نفسي بحيرة : أين يجب أن أضرب الآن؟ أية نبوءة مينة ترقد في صدري الآن؟

أجبت بحكمة المسنين : أنا رجل ميت ، لقد قتلني تلك العجوز الساحرة .. عندما ابتسمت بحزن وقالت : « أنت بلا حظ » .

اقتربت السمات . أصبحت قريبة إلى درجة بدأت أرى عيونها ومناقيرها وتلك البقع الصغيرة التي تتداخل فيها الالوان بنعومة أنيقة . شعرت بتوتر يزدحم في قلبي . صرخت :
- اضرب .

كانت الطلقة وهي تسبح في تلك اللحظة المذهولة قبضة من الخير . كانت قبضة خضراء .

زقت السمنة وهي تهوي . قلت : ما أشد روعة الصوت . سمعت لسقطتها دويًا صغيراً ، وسمعت دوي الطلقة ينبع من الاشجار وماء المستنقع . ان شيئاً أكبر من صوت الطلقة يملأ كل شيء في .. انه صوت الفرح .. صوت الظفر .

كانت عيناها لا تزالان بذلك التدفق السخي تنظران الي ، أما المنقار الصغير فقد انغرز قليلاً في يدي . قلت لها بفرح :

- احتمل عبثك أيتها الاميرة المشرقة ، أحس الدفء لذيداً واسعاً في يدي .. تمهلي قبل أن تنتهي . أريد جواباً على هذا السؤال الذي يتردد في قلبي : هل رأيتها؟ تعرفين عنمن أسالك .. تعرفين عن أية ملكة اقتش!

التوى العنق، لكن كان الدفء لا يزال يتسرب اليّ، كأنه جمرة على وشك الانطفاء. وضعتها في جيبى.. وتراجعت.

الطفلة الأولى في هذا الغروب عنوان لظفر أكيد. قلت بجبروت :
- سأظفر بالملكة الأم، وهذه الطلقة هي الجبل الممدود بيننا، حتى لو كانت في أقصى بقاع الأرض.. لن تفلت. ابتعدي.. اذهبي الآن، لكنك ستأتين.

رقدت من جديد وراء أشجار الصفصاف، قريباً من العليق. الظلمة تزداد التصاقاً بكل الكائنات، وعيناى تغزلان الهواء بحثاً عن سمّة أخرى. جاءت.. جاءت من الخلف هذه المرة. سألتها بحزن :

- لماذا جئت من هنا أيتها الساحرة الصغيرة؟
كانت لا تزال قريبة لما رأيته، لكن خوفاً مفاجئاً جعلني أتوقف عن التفكير.. ندمت لما رأيته تغادر المدى القريب وتبتعد. لكن ندماً حاداً سيحتل عظامي لو ان ضربتي فشلت. تصورتها مقدمة الموكب الملكي. تلفت لأنتظر مجيئها. مرت دقيقة، مرت دقيقتان. قلت لنفسى :
- أيها الأرعن، أنظر نحو الغرب.. من هناك يأتي السمن.

بصقت على الأرض.. قلت بصوت عالٍ :
- لو كنت أنتظر طيور السمن لوقفت في غير هذا المكان.. أنا انتظر شيئاً آخر لا أريد أن أبوح به.

وفكرت بآلاف الاشياء، بدت لي حزينة ودون جدوى!
صرخت بغضب :

- زفى أكثر، يجب أن تعترفي أن صياد الرب لا يخطئ. أين تذهبين مني؟ أنا القدر أيتها السعيدة الميتة!
كانت تقف باندهاش على غصن شجرة قريبة. لم ترني. انتظرت

لحظة قصيرة ريثما أتملى من هذه الأبهة ، ودون أن تحس سلختها .
تهاوت فوق عليقة قريبة . انتفضت كديك واقتحمت الساقية الصغيرة
الرطبة . دفعت بساقي أول الاغصان الشائكة . كانت تقفز قفزات صغيرة
متأللة . التقطتها بعد أن جرحت الاشواك يدي . قلت لها وهي تملأ حيز
كفي :

- اشربي من دمائي المسمومة ، لعلك تسكين . اشربي بارتواء .. أما
الملكة فسوف اقدم لها قطعة من كبدي .

وفكرت : تحول كبدي إلى اسفنجة منتفخة .. وبصقت .
لما وضعت السمنة الثانية إلى جانب أختها ، بدت لي الأولى متقلصة ،
جافة وأصغر من قبل . قلت لنفسى : تمرغت أبهة الملوك في التراب . سوف
أقتل ألفا حتى اشفى !

وقفت كثور . تشرت الظلمة ، وبدا لي كل شيء أكثر أمناً وثقة .
قلت :

- أيتها الطيور الفرعة .. والتي كانت تطوف في السماء ، كأنها
الضائعة ، لن يطول ارتفاعك ، سوف تقتربن من الأرض . الأرض أمنا
جميعاً !

الظلمة مدت شحوباً متزايداً فوق كل الأشياء . تراءت لي الأشجار
البعيدة وكأنها سد مهجور ، وكنت أكثر شجاعة ورضاً في تلك اللحظة .

السمنة الثالثة زقت كأفعى ، وتابعت . قلت بثقة نبي صغير :

- لا بد وانها أصيبت . رأيتها تطير بذلك الطيش الذي لا يفعله إلا
الجرحى .. لو لم تجرح لطارت كأميرة مهيبة . هل أصيبت فعلاً؟ هل
أتوهم؟

قلت لنفسى : كانت قريبة ، لو تركتها تتعد قليلاً لتحكمت بظورها ،

لكن السرعة .. الرعونة ، ذلك الصبر المخنوق الذي يطفو في داخلي كأموح صغيرة ولا بد وأن يدمر كل شيء !

ارتفع صوتي برجاء كأنه الصلاة :

- ايها الطيور الصغيرة .. هل رأيت الملكة؟ أسأل ببلاهة الارانب المذعورة .. لا بد ان جميع الطيور تقدم للملكة قداسا يوميا ، تسجد عند أقدامها ، لتكتسب بركة أزلية تجعلها قادرة على مواصلة الطيران .. لا يمكن لها أن تحيا دون تلك النظرة- البركة ، الكنز ، نعم رأيتها ، ومرت تحت رذاذها .. لكن أين؟

توهمت للحظات أن جيوبي تمتلئ بطيور السمّن . قلت لنفسي بثقة راسخة : أنت يا زكي صياد له تجربة ، وقد حلت عليك بركة السماء !

آه ما أشد فظاعة الحياة . قبل نصف ساعة كانت هذه الطيور تغزل السماء البعيدة بطيرانها الشامخ .. أما الآن فانها تنهاوى . لو اني مددت يدي في تلك اللحظة إلى الغصن القريب لأمسكها ، لكن لما التفت رأيتها تخفق برجاء ذاهل . أصابني رعب وحزن ، ولم أستطع أن استدير الا مثلما يستدير فيل . كانت قد تداخلت بين الاغصان وابتعدت .

قلت بصوت اردته بلا ارتجاف :

- لقد وهبتك الحياة .. اذهبي .

وتصورت نفسي قديساً !

كانت السمنة الثالثة تقف على شجرة مشمش لا تبعد عني أكثر من عشرين متراً .. كانت ترتاح على غصن عالٍ قبل أن تضع أجنحتها في الريح مرة أخيرة لتنزل شرعياً إلى المستنقع . كانت أغلب الطيور التي تبات في المستنقع ، تفعل ذلك .. والذئب الاعور يدرك ذلك ويستطيع أن يتخفي ليلتقطها . قلت لنفسي : هذه لي ، أقتل نفسي أن لم أقتلها . أراها الآن

كبيرة ولا تشبه أية سمّة أخرى ، ولا أريد الملكة الليلة ، لتبق في رحاب الله البعيدة .. وهذه ملكتي !

كانت الطلقة وطيранها في وقت واحد . رأيتها تهوي ، ورأيتها تركض على الأرض صرخت :

- أين ستهبين من الذئب الجريح ؟

ظللت أركض وراءها . كانت ترق وتركض ، حتى إذا أصبحت المسافة بيننا صغيرة ، ربضت وتطلعت نحوي . لما اقتربت منها ركضت من جديد .

صرخت كإبليس :

- المدى بيننا .. وليس غيرنا في هذه الدنيا .

كانت تركض بفرع دون أن تأخذ اتجاهاً محدداً . كانت تدور وتفقر . أما الجناحان فقد تحولوا إلى عبء . كانت تحاول أن تطير ، لكن بتلك الطريقة المضحكة ، مثلما يركض انسان أعرج . في لحظة ما اقتربت منها ، أصبح بيننا متران . توقفت وأنا أفكر : يجب أن تطمئن قليلاً .. الاطمئنان طريق النصر .. وحتى الله عندما يريد أن يسحب أرواح البشر يفعل ذلك بخبث لكي لا يحسوا !

قلت لها بصوت ناعم :

- أيتها العزيزة ، لنكف عن هذه اللعبة القذرة .. أما أن اطلق عليك طلقة أخرى ، فأكون أبله لو فعلت !

تكومت كأنها حجر صغير . اقتربت حتى أصبحت المسافة بيننا ذراعاً .

قلت لها برجاء :

- انتظري يا ارنيتي الصغيرة !

قفزت مذعورة لما سمعت كلماتي . كانت قفزتها كبيرة متقنة ، كما

لو انها تعاود الطيران من جديد. مددت البندقية في محاولة لاستعمالها
كعصا واضربها، لكنها زقت وركضت. صرخت :

- انتهي أيها البائسة، لم أعد أملك صبراً!

ركضت وراءها.

كانت الظلمة تتماوج في الهواء، وتلتصق به تدريجياً. السمنة تقفز
كأنها جنذب كبير، صوتها الفزع يرتفع على شكل صرخات صغيرة متألدة،
وأنفاسي تتكاثف في صدري وتركض معي. قلت بتعب :

- يا أميرتي الصغيرة، أنت ميتة، لا محالة، والافضل أن تأتي اليّ
وحدك!

قفزت. كانت تمتلئ خوفاً، حتى انها قررت أن تحارب إلى النهاية.
هدر صوتي بألم :

- لن نفلتي، والطلقة الثانية لن تحلمي بها.

نقلت البندقية إلى اليد الأخرى، لأمنح نفسي مزيداً من القوة.
اقتربت، لبدت، نظرت، أو هكذا تراءى اليّ، بتوسل، كانت على
وشك الاستسلام، لكن في لحظة انفجر في داخلها عواء.. اخذت ترقق،
كأن يداً ثقيلة اطبقت عليها. كان صوتها جارحاً ملعوناً ويفيض بالسواد.
قلت :

- أنت الآن في يدي!

لما تقدمت تلك الخطوة الواثقة المبهورة، قفزت.

آه لو انها لم تقفز تلك القفزة. لو انها تجمدت في مكانها، لو انها
توقفت، لو انها أعطتني نفسها، لعدت تلك الليلة.

لكن في تلك اللحظة ذاتها، ولم يبق بيني وبين النهر سوى أمتار،
حتى انفجر في داخلي العواء المجنون اياه.

كان الفضاء يعربد بالصمت ، عدا أصواتها الصغيرة الحادة ، والتي لا تخلف صدى . في القفزة الأخيرة ، وأنا أقترّب منها ، وأقترّب من النهر ، انفجر كل شيء .

عربدت الملكة . انفجرت من الأرض ، من مياه النهر ، من كل شيء !

كان لعريدة الاجنحة ، للسواد المدبب ، للبياض المسنون ، للخفقات الهوجاء ، للزهو الفاجع ، لليل الذي بدأ يتكاثف ، لكل شيء ، هول لا يوصف !

طارت في تلك اللحظة . كانت البندقية في يدي اليسرى . كانت مثل عصا عمياء ، لا تعرف كيف تتحرك ، كيف تنتقل إلى اليد الأخرى .

صرخت كمجنون والاشياء تتداخل أمامي وتضيع :
- ايها الاحزان اقتليني ، أنا لست إلا كلباً ويجب أن أموت .
وتلاشى كل شيء .

ضاعت السمنة . ابتعدت الملكة . أما البندقية ، فقد بدت ، وهي مسنودة إلى شجرة الجوز ، قاتمة بليدة .. وأحسست تجاهها بعداء جارح . أما السيجارة التي تدلت بين شفطي برخاوة فقد كانت متحدية .. وأحسست أن لها طعم التراب والخيبة !



الفصل الرابع

.. المسافة الافقية مائة متر، بالتأكيد لا تتعدى المائة، لا يمكن ان تتعدها بأي حال من الأحوال. قلت لنفسى ووسعت بين القدمين، لأقيس المسافة بين المكان الذي رأيت فيه البطة، أول مرة، والمكان الذي رأيتها فيه امس: لولا أشجار الحور البلهاء والحفرة، لاستطعت قياس المسافة تماماً، ضحكت بأسى وأنا أعد الخطوات بصوت عال. قلت لوردان الذي كان يتراكض حولي:

- لا تسخر يا وردان، يجب أن أتأكد من المسافة! كانت عيناى مثبتتين على الأرض وأنا أخطو بتلك الطريقة الجلييلة. شعرت أنى أفقد توازنى فى المشى. فكرت: شكرالله ان الانسان لا يمشى بهذه الطريقة دائماً. وارتفع صوتى بالعد لكى لا أخطئ.

تجاوزت اشجار الحور وسرت بقوس كبير. انعطفت بشكل حاد لأقرب من النهر. توقفت قليلاً لأقدر ما يجب أن أختصر لتكون المسافة فى النهاية أكثر دقة. قلت لنفسى: سبع وأربعون خطوة.. إذا أنقصنا عشراً.. لا.. يجب أن نقص أكثر من عشر.. واقتنعت باختصار ثلاث عشرة خطوة، وبدأت من جديد أوصل العد، على طرف النهر.

فجأة رأيت على الضفة الثانية رجلاً. كان يجلس صامتاً ومتكوراً. لم يكن بعيداً. قلت فى نفسى: رأى وسمع. شعرت بالارتباك. فكرت: إذا

تابعت بنفس الطريقة سيضحك ، وقد يتصورني مجنوناً ، أما التوقف فستحيل . واصلت السير ، لكن خطواتي اضطرت وانحرفت . قلت بصوت عالٍ لأطرد الخوف والارتباك :

- مرحباً !

- مرحباً .. تفضل .

- شكراً .

وبدت لي الكلمة التي خرجت من فمي مجرد صوت أحم . قلت في نفسي : يجب أن أقول شيئاً لأنقلب على الحرج . وفكرت : لو سألته عن البطة قد يظهر سؤالاً فجاً ، لكن يجب أن أفعل شيئاً ، أن أقيم بيني وبينه جسراً .

لو كنت شجاعاً لسألته ببساطة عن أي شيء .. عن صمته مثلاً .. لحدثته عن العذاب الذي خلفته الزانية في دمي . لكنني أعرف زكي نداوي ، رجل شديد التعقيد والتحسب . وهذا الرجل .. بالتأكيد يعرف الزانية ، ربما في مكانه الآن ، بهذه الطريقة المتخفية ، ينتظرها .. لا بد أن تأتي . لكن لو كان صياداً لتصرف بشكل آخر .

فكرت : وأنت يا دودة عمياء .. هل تعتبر نفسك صياداً؟

سألت دون تفكير ودون رغبة :

- حواليك ماء يا أخ؟

تلفت . بدا حائراً وكان السؤال فاجأه ، أو هكذا بدا .. قال بصوت أراده واضحاً حاد النبرات ليخفي حيرته :

- إذا استطعت ان تعبر ففي الطاحونة ماء .

وأشار بيده دون أن يلتفت . لما وجدني متردداً ، قال بلهجة صلبة :

- وإذا أردت يمكن أن تشرب من النهر .

وتابع بنغم جديد :

- بعد عشرين خطوة .. يوجد نبع داخل النهر .. هناك المياه نظيفة !
وتحرك ليقترّب ، على الضفة الثانية ، سار بموازاتي ، وعيناه
لا تتركانني . وسع خطواته قليلاً واقترّب . كان النهر حاجزاً رخواً بيننا ، حتى
لتبدو الاشياء عبره بعيدة وقريبة في وقت واحد . تفرسني أكثر باكتشاف
قاسٍ .

صرخت لأنقلب على نظرتي :

- وردان .. يا كلب السوء .. أين أنت ؟

كان وردان يتشمم الأرض ويدور . انزلق إلى النهر وأخذ يشرب .
قلت بصوت قاسٍ :

- تقدم أكثر لتشرب من المياه النظيفة ، أيها الأبله .

بعد أن ارتاحت نظراته على جسدي ، وبدت عيناه المكتشفتان أقل
سخرية ، سأل بطريقة ودودة :

- ما أخبار الصيد؟

وقذفت الكرة بوجهه بسرعة . حاولت أن أعمد الشجاعة والابتسام :

- أنا الذي أسالك !

قال ، وهو يحاول أن يصفى صوته ليبدو واضحاً :

- الصيد ليس كثيراً .. عند الغروب يأتي السمن إلى الغيض .

وقال قبل أن تستقر كلماته في أذني ، وقبل أن اتمثل أية فكرة :

- هل اصطلدت شيئاً ؟

قلت بمراوغة بلهاء :

- إلى هذا المستنقع يأتي السمن ؟

وأشرت بيدي ، وأنا التفت نصف التفاتة .

رد بسرعة ، لكن بطريقة اختبارية :

- أي نعم .. وأنت أين تصطاد؟ ماذا تصطاد؟

قلت بتكلف ظاهر:

- أي شيء .. أي شيء!

ردد ورائي بطريقة استفزازية ، لا تحمل أي معنى للتساؤل :

- أي شيء!

ربما رأي في مرة سابقة . الآن .. ترتاح الشناقة البائسة على جنبي ..
تلوح لكل حركة .. ويرى أيضاً خطواتي التي تزرع الفضاء بتلك الطريقة
المضحكة . لا يمكن أن أذكر له شيئاً عن الجنية الملعونة ، لو سألته عنها
لسخر مني أكثر. « اذهب لصيد الضفادع ، ايها الرجل الغر ، لا تفتش عن
الملكة » . أرى في عينه شكاً مزمزماً ، والا لماذا يسأل بهذه اللهجة المعادية؟

قلت ، محاولاً تغيير الموضوع :

- قلت لي إن المياه نظيفة هناك!

خطوت إلى الأمام خطوات قصيرة جادة ، وخطا مقابلي ، على الضفة
الثانية ، لكن نظراته لم تفارقني . قلت بصوت واثق :

- وردان .. يا وردان .. لا تملأ كرشك بالمياه الوسخة!

قال :

- اتركه .. ألا ترى لسانه؟

وتابع بنغم مختلف :

- الكلاب تشرب أينما كان ، لا يهمها إن كانت المياه نظيفة أم

لا .. المهم أن ترتوي لكي لا تعوص وتهرب الصيد!

كدت أقول له أن وردان أشرف كلب خلقه الرب . واني أحتضن في يدي أنقى المياه لكي يشرب . وجدت الفكرة تافهة . توقف عقلي عن التفكير . فجأة أمسكت بحجر وضربت وردان :

- أيها الخنزير تحولت إلى جيفة بعد أن شربت من هذه المياه ..
الماء التنظيف أمامك ألا ترى؟

ونحن نزلق باتجاه المياه النظيفة ، وصلنا إلى المكان الذي قفزت منه الجنية . كان النهر ينعطف هناك ، وعلى الطرف القريب ، عليقة كبيرة تحجب قسماً كبيراً من الضفة الأخرى . قلت لنفسي : والعليقة تفصل بيننا :كم كنت أبله . لماذا لم أر هذه العليقة أمس؟ كان يجب ألا أفتش في أي مكان عن الملكة . هنا عرشها . هنا بلاطها . قلت له ، قبل أن تكف العليقة عن أن تكون حاجزاً :

- ألا يوجد بط هنا؟

رأيت رأسه يطل وتساؤل في عينيه مليء بالشك والخبث . حتى اذا اجتزنا العليقة ، وتواجهنا من جديد ، قال :

- بط ..! ما ألعن البط !

قلت في نفسي : رأى الملكة ، لو لم يرها لما قال هذه الكلمات ، ربما عذبتة مثلما عذبتني . سألته بلهفة وبشكل تقريرى :

- هذا مكان مناسب للبط .. ألا تعتقد؟

توقف حتى واجهني تماماً ، شدني إلى الأرض ، لكي أنظر إليه . فلما تأكد اني وقفت قال :

- فراخ صغيرة من البط الأسود .. يمكن .. ربما عند الحورات التي تراها !

وأشار بيده إلى المستنقع الثاني . أضاف :

- جَلَطٌ ، لكنه يختبئ بسرعة .

وتغير صوته من جديد وأضاف :

- الجَلَطُ زنج .. وحتى لو أصيب ، لا يمكن اخراجه من الغيضة !

كنت أريد أن أسأله عنها ، فكلماته مليئة بذلك التحدي الذي

لا يخفى . قلت :

- وغير الجَلَطُ ؟

رد بخبث :

- لا شيء .. لا شيء أبداً . أتعرف الجَلَطُ ؟

كان ينظر الى عيني تماماً ، يبدو أن شكاً يفتك في قلبه ! قلت بسرعة

وعيناى تبحثان عن وردان :

- الجَلَطُ لا يساوي شيئاً .

تحرك قليلاً ، ونظراته تنصب عليّ ، يريد اكتشاف هذا العالم الذي

يمشي بموازاته ، على الضفة الثانية . لما اقتربنا من المياه النظيفة ، قال :

- يمكن أن تشرب .. هنا .

كان طعم الماء كريهاً . وأحسست بالرجل ، وهو يرقبني ، معادياً ،

ساخراً . لما اعتدلت وجلست على ركبتى ، بعد أن انبطحت وشرت ، رأيت

في عينيه أكثر من رغبة الاكتشاف . قلت في نفسي : زكي نداوي يتحول

بنظر الناس إلى قرد ملون مثير للسخرية !

تمددت على الأرض من جديد ، مستنداً على راحتي ، وبدأت أعبّ

الماء بتلك الطريقة الكثيفة . كنت أريده أن يتملى من منظري حتى الثمالة ،

فأنا لست أكثر من نملة معفرة في أحسن الحالات .

جاءني صوته محايداً وبعيداً :

- هل اصطدت هنا قبل هذه المرة؟
تطلعت اليه طويلاً قبل أن أجيب. طافت برأسي أفكار محمومة.
قلت بتعالٍ:

- دائماً اصطاد هنا!

انحنيت مرة أخرى إلى الماء. ملأت كفي، وناديت وردان:

- وردان.. تعال يا أجرب.. تعال لأسقيك!

كان صوتي يمتلئ بالغضب. ووردان يعرف موسيقى الغضب، يحسها تماماً. رأيته يتراكمض وأذناه تصطفقان، وبدا جلده لامعاً وقد نر منه العرق.

اقترب كثيراً حتى كاد يوقعني في جلستي القلقة المضطربة. قلت وأنا أجعل للكلماتي معنى آخر:

- اشرب أيها الجاهل، أيها الكلب الذي لا يعرف شيئاً!

مد لسانه، لقع مرة واحدة، ثم تركني وانزلق إلى النهر.

لم يكن عطشا. شرب قليلاً ثم اندفع إلى الماء يخوض فيه. قلت بصوت خشن:

- لا تستأهل الصدقة، يا ملعون الوالدين..

رميت بجذعي إلى الخلف، تاركاً لساقِيَّ أن تأخذ شكلاً طبيعياً مريحاً، بعد أن كانتا إلى ذلك الوقت تحتي. عقدت يديَّ على الركبتين في استراحة قصيرة، ونظرت اليه أمتحن صدقه ومعرفته في عينيه. سألته:

- ألا يوجد في هذا المكان غير السمن والجلط؟

هز كتفيه دلالة الجهل، ثم رأيته يسير إلى الأمام، بضع خطوات، ويجلس بعيداً عن ضفة النهر، كأنه يحاول حماية نفسه بشكل ما.

سألته من جديد:

- قلت لي يوجد نوع آخر من البط !

- وحتى الجَلَط قليل .

قال ذلك ويداه ووجهه تشارك في الاجابة . كان يهز رأسه بطريقة
أسفة ، كأنه يتذكر . وأضاف بعد لحظات :

- لكن الجَلَط كبير .

كانت يداه ، وهو يباعد بينهما بمبالغة ، تشير إلى الحجم ، كانت
تهتزان كأنما تحتضنان شيئاً كبيراً وعزيزاً . هل كان يسخر مني ؟ يختبرني ؟

قلت بصوت نابٍ وفيه تحدٍ :

- أسألك اذا كان غير الجَلَط موجود؟!

نهض وهو يلتقط عوداً يابساً . ثناه بين يديه ، ربما ليستعين به على
التماسك ، لكي لا يبوح بالسر ، ليخفي ما يدور في رأسه .

قال وهو يستدير ويتبعد :

- لا تفتش ، ستتعب دون أن تجد !

لما ابتعد .. توقف . كانت المسافة بيننا قد اتسعت . قلت في نفسي :
الخنزير يخفي بندقيته ، سيلتقطها الآن .. ويبدأ رحلته . فكرت : هؤلاء
الناس يخفون تحت ثيابهم أفكاراً شريرة ، ويكبرون أن يشاركهم أحد في
الصيد .. قلت بصوت عالٍ :

- عندما تدوي طلقتي وتهوي الجنية ، سيعرف أي صياد أكون !

بصقت في النهر .. ونهضت . لما رأي أقف شامخاً مليئاً بالثقة ، أخذ
يسير مرة أخرى ، لكن ظل يلتفت .. وكأنه يخاف من شيء !

قلت لوردان ، لما رأيته ينتفض ليزيل آثار الماء عن جسده :

- سأجعلها تنتفض هكذا . سيدوي جسدها في الهواء وعلى الأرض .

انتظر وسترى !

أمسكت البندقية بحزم اليأس . قلت لنفسي بصوت مفخم جداً :
- لو كانت المسافة آلاف الامتار . سوف احزّ رأسها .. وهذا الرجل
المكروه يعرف شيئاً لا يريد أن يقوله . ليتلع كل ما يعرف ، ثم يبوله
كخنزير ..

وانكسر صوتي تماماً . واصلت بهمهمات صغيرة متعثرة :

- لا يمكن لأحد أن يساعدني .

رميت البندقية إلى اليد الأخرى ببراعة . هزرت يدي اليمنى بعد أن
أصبحت طليقة وقلت بعناد :

- هذه اليد وحدها القادرة .. انها الجسر .

ارتعشت قليلاً ، وأصابني خوف مشوب بالقرف .

قلت لنفسي : الجسر .. الجسر ، ما أتعسك يا زكي .

كان وردان يتعد ويقترّب . كان يبدو فرحاً وعاتباً . قطبت وجهي
وصرخت بالطريقة التي يفهمها :

- كن جاداً أيها السكير التائه .. الآن سنذهب بعيداً .. سنصل قبل

الغروب .. إذا تمايلت كسكير أرعن فسوف اقطع عنقك وادفنه في مزبلة ..
أتفهم ما أقول لك ؟

ومشينا !



الفصل الخامس

قلت بصوت حاد :

- زكي نداوي إنسان معطوب ، انحلت فقرات ظهره أصبح يشبه
هرأً عجوزاً!

ضحكت للصور التي تتسرب إلى لساني من ذاكرة رخوة. سألت
نفسي : هر عجوز؟ اجبت وأنا اتظاهر بالتواضع :

- شوال فارغ ومثقوب ، عيناى مليتان بالحمرة ، وجهي كالنحاس
المحروق ، الشفتان جافتان مثل قطع الحطب الرطب .. واليدان .. اليدان
المليتان بالخدوش الصغيرة والتي أرفعها كأعلام مهترئة .. كل الأشياء تقول
إني مدحور.

كل شيء فيّ يعوي بالخيبة . أما الحجارة المصقولة ، جانب المستنقع ،
الحشائش المداسة آلاف المرات ، الاشياء التي ليس لها اسم ، ولا ينظر اليها
أحد ، حتى وردان الصامت الذي يدور حولي أثناء النهار ، ثم يرتمي عند
قدمي في الليل ، فهذه المخلوقات والاشياء أفضل مني آلاف المرات .
اهتز رأسي باستكبار وأسى . اصطكت اسناني ، قلت لأختم هذه
المفاجأة البائسة :

- انا انسان مسكون بالظلمة .

وفكرت : لن تجدي الكلمات الكبيرة والشتائم . أما المكر الذليل الذي ارسمه على وجهي فاقرب إلى السخرية .

صرخت في وجه وردان الذي كان يدور حولي :

- سأضع قدمك الامامية ، ذات يوم ، يا وردان ، بين شقي الباب واهرسها . سأبصق في وجهك تماماً . اصرخ مثل أي كاهن غضوب ، أما أنا فسوف افعل أي شيء لأبرر لنفسي الخيبة .

قلت في نفسي باستسلام : ولكن الخيبة جنية سوداء ، وهي تسكن عظامي مثلما تسكن الخضرة الأشجار . وعدت افكر كيف حصلت الأمور : اقسمت بتراب الآباء والأجداد وقلت انها لن تفلت . وفي المرة الثانية نظرت إلي وهي تهول والبندقية في يدي كعصاة . نظرت بسخرية ، نهضت على مهل ، ثم دارت حولي واختفت في أشجار الحور . لم أفعل شيئاً في المرة الثانية . تملكنتي حكمة المسنين وخوفهم من الموت . ولم أجرؤ على التفكير لحظة واحدة في أن أحول العصا إلى حجر واضربها .

قلت لنفسي بصوت مهترئ : عليك يا ابن النداي ان تحضر الآن حفرة بطول قامتك المديدة ، قريباً من أحد المكانين اللذين رأيتها فيهما . وبعد أن تنتهي ، وتقيسها بعضاً أو بهبل ، وتؤكد أن عمقها يكفيك ، يجب في هذه المرة ، أن تطل على كل ما حولك : الأشجار ، النهر ، الشمس الغاربة . وبهدوء الأبالسة تقعي على الأرض ، ثم تستجمع بقايا القوة ، وتلقي البندقية هناك ، لتكون فوهتها إلى اسفل ، وواقفة على جنبها ، حتى إذا اطمأت وروحك اقذف نفسك . يجب ان يكون رأسك إلى الأسفل ، ورجلاك تتمرجحان في الفراغ الصغير الذي يشكل بداية الحفرة ، لا تتحرك ، لا تصرخ ، لا تندم ، انتظر ببسالة القراصنة هناك ، حتى اذا مت تماماً وجافت الجثة ، وتأكدت بنات أوى أن الحركة التي تراها لا تتعدى خفقات الريح في هاتين الساقين الجافتين ، بدأت تنهش . لن ترى

شيئاً يا زكي . الموتى لا يرون ولا يحسون . سيتم الأمر بهدوء ، ستفزع الملكة وهي تحوم فوقك ، تظن أنّ صياداً يكمن في الحفرة ، وان الطلقات ستنهال عليها، لن تحط أجنحتها الثقيلة أول مرة ، ولكن السكون المخيم على الاشجار والمياه ، ثم الظلمة الخفيفة التي تندرج من السماء ، ستجعلها أكثر شجاعة وتقرب ، ربما توارت تحت العليقة ، ومدت مقارها الطويل تشمم الهواء ، فإذا أجفلت من تلك الرائحة ، انزلت بهدوء لتبدأ رحلة ملكية باهية !

صرخت بلؤم لأوقع في نفسي أذى حقيقياً :

- تشرب كل حرف من مزمورك الجديد .. تشرب الكلمات التائهة التي أقولها لك يا زكي . يجب أن تفعل شيئاً لتكون منصفاً .. أما أن تتطلع إلى النوافذ كل يوم ، أن تتظاهر بالخجل ، وصوتك الترق يفتك بوردان ، طالباً أن يقفز امامك على الموتور .. لتبدأ الرحلة كل يوم ، فقد آن لهذه الكذبة الهوجاء ان تنتهي !

وتذكرت : كان أبي لا يتعب وهو يقول : «على الانسان أن لا يتعب .. التعب يقضي على كل شي .. إنه ينبع من العظام ويصب فيها .. تماماً مثل بعض الينابيع العمياء» .

قلت بصوت حاد :

- لماذا تخور قواي واحس بالتعب إذا خابت الطلقة؟ لماذا تفتت إدراقتي وتتناثر في الهواء؟ أنا ينبوع جاف ... ولثيم !

وفكرت : زكي نداوي وهو يركض وراء السمنة لا يرى الاشجار وقنوات الماء ، انه يركض كامرأة حبلى : خطوات صغيرة خجولة ، لكنها عمياء ... حتى إذا خابت الطلقات بدأ يشتم !

قلت بتحد :

- قبل أن تشتم، قبل أن ترفع قبضتك في وجه الله، فكر بهدوء
الأبالسة!

وتذكرت : كيف كنت أركض ببلاهة لالتقاط الطير الذي أتوهم انه
سقط .

صرخت :

- الخطأ يكمن في كل خطوة .. قبل أن تخطو بجلال املا
بندقيتك .. وكن مستعداً . في الصيد كل شيء ممكن ومن اعماق الأرض
تنبثق في كل لحظة جنية .. إذا لم تكن مستعداً .. انتذكر كيف حصل
الأمر؟ أجل .. انطق . نظرت إليك بسخرية وتابعت طيرانها . أما إذا كانت
البندقية يمينك كالسيف ، مليئة وجاهزة ، فلن يفلت الرب من الطلقة !
قلت في نفسي : جلدك يا زكي يكتنز بالحكمة ، أما القواعد التي
تجول في رأسك كخيول جامحة ، فانها تتحول إلى أبواق صدئة خرقاء ،
عندما تبدأ التطبيق!

لا تصرخ في وجه وردان . اتركه . اسمع ما أقول لك : الحفرة . ثم
نكس رأسك كثور واقفز . والبندقية بعد أن تأكلك بنات آوى ، سيأتي
فلاح فقير ليستخرجها ، وسوف تتحول البطة في عينيه إلى خرقة بالية يعرف
كيف يسترجعها من فم الرياح !



قلت لوردان بأسى :

- اسمع يا وردان .. أنا الآن احداثك كأخ ، حاول أن تفهمني !
قفز العكروت . إنه يستهزئ بي ، وإلا لماذا يقفز هكذا؟ فكرت : هل
أخطئ عندما أشتم؟

قلت بحدة وأنا أمد اصبعي نحوه :

- ليس لك مثيل.. ايها الكلب الداعر!

وفكرت : يقولون . الكلاب أكثر الحيوانات وفاء ، فهي لا تنسى ، لا تخون ، وموجودة في الوقت المناسب . لا أصدق مثل هذه الأكاذيب . لقد بلغ وردان السنة الثالثة ، أصبح راشداً تماماً . ومنذ الأيام الأولى أمحضه العطف والحنان . أطعمه . اطعمه أكثر مما ينبغي ، وأقوم في منتصف الليل لكي افتح له الباب حين يخرمش ليقضي حاجته .. واستعمل معه اسلوباً رائعاً في الحديث . أخاطبه كرجل ، كأنسان ، وبعد ذلك كله ، عندما احتاج إليه .. يتصرف بحماقة .

المدى الفسيح بين المستنقعات المنخفضة - كما أحب أن أسمي هذا المكان - ، والمستنقعات الأخرى التي أشار إليها الرجل ، مليئة بذلك الجمال الأخرس . الجمال الشتائي الحزين : أشجار الحور تقف عارية ، كأنها حدود بين عالمين ، أشجار الجوز العملاقة ، بأغصانها المتداخلة الكثيرة ، تشبه حالة من الفوضى الدائمة .. أما لون الأرض فاقرب إلى الصفرة الرمادية .

السماء الباهتة الزرقة والبعيدة توحى بالوحشة ، أما البرودة فقد اكنزت حتى أصبحت مثل شيء ثقيل يهبط على الصدر .

قلت لنفسى : لو أن الزانية تخرج الآن .. ولكن كيف افلتت في المرتين السابقتين؟ وفكرت : على الإنسان ان يكون شديد اليقظة . أن يكون يقظاً دائماً . الصياد عين كبيرة ، إذا لم ير الأشياء يجب أن يحس بها ، ان يمتلئ بتوقع مذهل لحضورها المستمر ، إذا لم يفعل فسوف يموت . الأمر كله يحصل في ثانية . آه ما أشد عبث القدر . إن اية ثانية لا تشبه الأخرى . كل واحدة منفردة مستقلة ، لها زمنها الخاص . لو كنت مستعداً في المرة الثانية ، لو أن ضوءاً صغيراً ، كضوء الشمعة ، سرى في الكون تلك اللحظة ، لما أفلتت .

صرخت :

- ولكن لماذا كانت البندقية في اليد الثانية يا زكي؟ كنت تمرجها كعصا. ألم تستطع أن تسترجعها بتلك السرعة وتصب؟ وإذا افلنت من الطلقة الأولى، هل كانت في البندقية غير تلك الطلقة اليتيمة؟
قلت لنفسني : أريد ان افكر بالأمر.. كيف تحصل ولماذا تحصل بهذا الشكل !

الخيبة في دمعي ودمي تنفجر في لحظة ، لتصبح اللوحة التي أرى كل شيء فوقها. أحس الخيبة بالخطوات ، بالأنفاس ، بذلك الخوف الفطري الذي يجعل تصور الظفر مستحيلاً ، وحتى الطيور التي تخطئ بالسقوط ، بعد الطلقات ، أتصورها ماتت فزعا. ماتت دون أن تصاب. أما بقع الدم الساخنة التي تملأ راحة اليد، لما ألقب الطيور، فأتصورها مياها ملونة ، وحتى الخردق الصغير الذي استخرجه من صدورها ، من سيفانها ، أتصوره وقع فيها بالصدفة .
هدر صوتي بحدة :

- لقد اختنقت . خنقتني الخيبة . امتلأت روحي بها حتى أصبحت لا أرى غيرها !

التفت إلى وردان . نظرت إليه بحزن . اهتز رأسي بحكمة ملعونة . قلت له :

- هذا ما أردت أن أقوله لك ، يا وردان ، هل تدرك الجحيم الذي تعيش فيه روحي؟

قفز وردان ببلاهة ، نظر اليّ بسخرية ، ثم رفع رجله إلى جانب حجر ، وبال .

تجاوزت المستنقع الأول في الأرض المنخفضة . اقتربت من شجرة الجوز الثانية . قلت لنفسني : السجارة الآن تمتص الخيبة من الدم .

صرخت أريد من وردان أن يجلس إلى جانبي ، لعل أقنعه بأن يستمع الي :

- وردان .. أعرفك لما كنت جرواً صغيراً ، ثم لما كبرت ، أتذكر الكوخ الذي بنيت له لك ؟ أتذكر الفراش الرمادي الذي كنت تنام فوقه ؟ إنه جزء من البطانية التي احترقت ذات يوم ، أثناء ما تركت المكواة فوقها . كان ممكنا أن استفيد من تلك البطانية ، أن أضعها تحت الفراش ، أن اقطع القسم المحروق وأعيد خياطتها من جديد لتصبح بطانية جيدة .. كانت غالية الثمن يا وردان .. أعترف انها قديمة .. لكن القديم بعض الأحيان يحتفظ بقيمته .. كالذهب . لم أفعل ذلك يا وردان .. قد تصبح البطانية أقصر . لكن لا يهم .

قلت لنفسي بتألم حقيقي وعطف على كل شيء :

- لينعم هذا المخلوق بالدفاء .

نهض وردان فجأة ، وبدأت حركاته العصبية تخفق في الجو . قلت وأنا انهض بسرعة :

- أيا كانت ملاحظاتي على هذا المخلوق البائس ، يبقى حيواناً ، وكل حيوان مفطور على غرائز معينة .. الإنسان يتمتع بغرائز منحطة ! حمحم وركض قليلاً . سألته وأنا اتبعه برأس منحن حذر :

- أيها العجوز الممتلئ غروراً ، قل لي ماذا رأيت ؟ وردان لا يزال يتقدم . يتقدم بتخف ظاهر ، كأنه يريد أن ينقض على فريسة . تابعته بحذر . أنفاسي قصيرة متلاحقة ، رأسي منحن ، وعيوني تغزل في الفضاء . قلت لنفسي : ربما كانت الزانية .

كان ظهري إلى الناحية الثانية . وردان رآها .. وإلا لماذا انتفض ؟ لماذا يحاذر الآن في مشيته !

قلت بصوت عال :

- لك فخذ كامل يا وردان إذا قتلها . سأعطيك الفخذ وإذا أردت
قسماً من الصدر فسوف أعطيك .. لكن يجب ألا تطلب شيئاً كثيراً .
انكسر صوتي ، مع خطواتي التي أخذت تقترب من بداية المرتفع
الصغير ، قبل المستنقع :

- دعني أراها بهدوء .. لكي اقتلها بطريقة فذة !

كان المرتفع الصغير الذي يفصل بين المستنقعات ، يشكل حماية
عالية . قلت لنفسي : إذا اقترب نحو حافة المستنقع لا بد أن تطير . لأتركه
يفعل ، ومن هذا المكان وبهدوء ، يمكن أن أراها حين تخضن الهواء ،
حتى إذا تمليت منها ، فسوف أطلق . يجب أن اسقطها من الطلقة الأولى .
لا أحتمل هذه المرة ، وليس لي عذر أبداً ... المرة الأولى فوجئت . المرة
الثانية لم أعرف كيف أتصرف .. الآن ..

صفرت لوردان أريده أن يبطن حتى اصل إلى حافة المستنقع . التفت
إليّ قليلاً كأنه يسألني . قلت بصوت منخفض لم يسمعه أحد :

- انتظر .. انتظر يا وردان !

وصل وردان الحافة . اعتلاها كما لو أنه قد . بدا لي أقل اضطراباً
تلك اللحظة . تلفت ونظر إليّ . قلت لنفسي : سيفسد الخنزير كل شيء !
ما زلت أتقدم . وردان يتلفت . قلت : الطيور لا تخشى الكلاب
كثيراً ، خاصة إذا كانت بعيدة هكذا . ليست بعيدة فقط ، بل والمياه
سياب ..

صفرت مرة أخرى . التفت إليّ قليلاً ، ثم ركض على طول حافة
المستنقع . كان يبدو مزهواً وساخراً . قلت بهدوء وبصوت خفيض :

- وتغضب حين أشمك ؟ لكن الأحمق الكبير زكي نداوي الذي
يصاحب هذا النوع من المخلوقات !

طار شحورر.. رافق طيرانه ذلك الاضطراب الصاخب مثلما يفعل دائماً. قفز وردان مرة أو مرتين. وتابع سيره على الحافة. قلت :

- هذا الأبله لا يثيره شحورر، لا بد أن رأى أو شم طيراً آخر!
أصبحت قريباً من المستنقع. لم يبق بيننا إلا الهضبة التي تشكل رأساً كبيراً لجسم دقيق مستطيل. استدرت حولها، وبهدوء صعدت الحافة. قلت لنفسي: ستطير الآن.. سأتركها تطير، حتى إذا توازنت في طيرانها، وأخذت اتجاهاً محدداً، أطلقت عليها.

كان وردان لا يزال يخب بتلك الطريقة المتكبرة. وصل إلى منتصف المستنقع. قلت لنفسي: في القصب الكثيف رابضة. وردان إله محنك، ويمكن أن يستخرجها.. لأتركه يعبر القصبات حتى إذا تجاوزها طارت.
كان وردان يخب بنفس التكبر لما صرخت عليه بصوت كثيب وحازم:

- على مهلك.. لأعبر هذا الجرف فقط، لا أستطيع من هذا المكان أن أطلق.. أنت ترى الوعورة.. دعني أتقدم خطوتين فقط!
في تلك اللحظة طار شحورر. انتفض وردان من المفاجأة. أما أنا فقد أحسست بقلبي يقفز في صدري. صرخت دون وعي:
- لا تعرف إلا المنكر يا عكروت. قلت لك انتظر!

كانت البندقية ممدودة، أردت ملاحقة الشحورر لكن شبحتها ملاً رأسي. قلت لنفسي: إذا أطلقت على هذا الناسك فقدت البركة وفقدت الملكة.

اجتزت الجرف وأخذت أتقدم.

المستنقع يمتلئ بصوت الضفادع، كانت أصواتها صاخبة ورخوة، كانت متجاوبة مثل موسيقى بدائية رتيبة. الأشجار تنحني على الماء حتى

تلامسه . الخضرة الطحلبية تملأ كل شيء وتعطيه ذلك اللون الأخضر الكامد والحزين .

عندما اقتربت من القصب ، وبدا لي أن ذلك المكان ، في وسط المستنقع ، أحسن مكان يمكن أن أقف فيه ، صرخت بجسارة على وردان ، ناديه ، أريده أن يستفز الملكة .. لتخرج :

- تعال .. إنها هنا .

عاد وردان . كان يدير رأسه ببلاهة لما أقبل نحوي . قلت له :

- هنا .. هنا .. انزل قليلاً وانتزعها من بلاطها !

انزلق وردان قليلاً حتى كاد يلامس أولى القصبات ، كنت أتفجر انتظاراً ، وتراءت لي كبيرة زاهية ، ثم تصورت إنها ستضرب الماء ، بأجنحتها العريضة ، وعندما تطير بذلك الفرع سألتقيها .

قلت لنفسي : لن تغلت هذه المرة . إذا طاشت طلقاتي فسوف أختنق ... لا ... سوف أعلق نفسي على شجرة جوز .. لكن لن تغلت . تلاشت أصوات الضفادع القريبة ، وقفزت اثنتان أو ثلاث إلى الماء .. ووردان لا يزال يحس بجسده قريباً من القصب .

قلت له بصوت غاضب :

- إذا سقطت في الماء ستزل مثل كلب لتلتقطها .

الأشجار تلامس المياه بثبات أخرس . الضفادع البعيدة تتجاوب بنداءاتها مع أصوات الكائنات الأخرى .. والإنظار مثل حبل مشدود يطوقني من كل ناحية . قلت لنفسي : هل يخطئ العكروت إلى هذا المدى ؟

لما أصبح وردان قبالي ، قريباً من بداية المستنقع ، نظر اليّ بعينين متسائلتين ، كأنه يستغرب وقوفي . نهرته :

- خض القصب كله أيها الخنزير الأعرج .
انزلق قليلاً وتابع سيره بموازة القصب . نبح بفجاجة كأنه يريد
اقتاعي إنه استفد كل إمكانياته في البحث . قلت بمرارة :
- سبتقي أضحوكة يا زكي .. أما الملكة التي تنتظر فلن تأتي !
وبدا وردان يتسلق الحافة الحادة . تراجع مرتين في صعوده ، ثم
اقترب ناحيتي وصعد .
قلت له بخشونة :
- سأطعم أذنانك للقطط . لو أطعمتها للكلاب فسوف تنجب مثلك
كلاباً غيبة .
توقف وردان . تلفت بزهد ، كأنه لم يسمع كلامي . قلت له بتحد :
- أنت تعرف أية عقوبات يمكن أن تنزل على هذا الجلد القدر ..
اتسمع ما أقول لك ؟
رفع وردان وجهه نحوي بغياء .. لكن ما لبث أن استدار وتحرك
وكأنه تذكر شيئاً فجأة ووقف عند حجر من الإسمنت ، كان علامة بين
حدين ، ورفع ساقه اليسرى .. وبال . التقتط حجراً وضربته . قفز . قلت
بمرارة أحسستها تشع من كل ذرة في جسدي :
- كان يجب أن تبول في مكان آخر .. هذا الحجر لا يستحق ..
أنفهم ما أقول لك ؟



الفصل السادس

لماذا تخاف الصيادين يا زكي؟ لماذا تتجنبهم؟ لماذا يمتلئ قلبك بهذا الغيظ كله عندما تراهم يحومون عند المستنقع؟ الا تتصور انه لو كان معك صياد آخر، لكنت أقدر على استخراج الأفعى من وكرها؟ الزانية تحاول يا زكي. تلف حولك في دائرة انت دائماً مركزها. لو كان هناك صياد آخر لأصبح للدائرة مركزان. وهذان المركزان يقتربان.. يقتربان، حتى اذا أحسست برائحة الخطر قفزت، وتنفث عليها النيران.. وتهوي، ستزف دماؤها. ستزف من الرعب، من الغيظ، قبل أن تصطدم بالأرض. يجب ان تقتنع بذلك يا زكي، قبل ان تموت من الحسرة!

قلت لوردان:

- وردان.. انت دودة رخوة تتحرك بلا هدف. افعل شيئاً نافعاً قبل الربيع، يا ايها الكلب السائب. اعرف ان السهول الخضراء ميدانك المشع، لكن الربيع بعيد، بعيد، ويجب ان تفعل شيئاً لتجنب الذل! وفكرت: ما أتعب الانسان عندما يحاول إلقاء فشله على وهم ما. وأنا زكي نداوي مزبلة متحركة. منذ شهر أطارد شيئاً لا أعرف ما هو، لكن بيدي هاتين سأقبض عليها.

قلت بصوت عال لأقنع نفسي:

- يجب ان اشقى .. انا مريض وحالي تزداد سوءاً .
فكرت : المرض ليس حالة عضوية .. إنه يريض هناك ، في داخل
النفس . لكن على الانسان ان يبذل جهداً كبيراً من أجل ان يشقى .
قلت لوردان الذي مدّ ساقيه الاماميتين وأخذ يتمطى :
- انت لا تعرف المرض يا وردان .. وإذا أصابتك هذه الأعراض
الصغيرة .. ترفع ساقيك .. ترفع ساقاً واحدة .. وتبول .
قلت لنفسي : الهزيمة هي المرض .

فكرت : ما معنى ان يكون الانسان مهزوماً ؟
قلت لوردان بصوت رخو حزين :
- ايها المخلوق الاقرب إلى قلبي من جميع المخلوقات .. لماذا
لا تنفل في وجهي ؟ لا يكفي ان تبول بتلك الطريقة التي تشعرني
باللاجدوى .. اريدك ان تصفع ذلك الكائن المهترئ الساكن في قلبي ..
أتفهم ما أقول لك ؟

وردان لا يتوقف . حركة عمياء سريعة ، ووجه مليءً بذكاء حزين .
قلت لنفسي : حتى الحركة لا تملكها يا زكي .. أما الغباء فليت أنك
تعترف بهذه الميزة الخارقة لنفسك لكي تنعم براحة الموتى . وفكرت : الطيور
التي كانت تضحج ، نفع ، تتراكض في الهواء ، بأجنحتها الملونة ، الحيوانات
الصغيرة ، حتى السلحفاة التي احتفظت بها ثلاثة أسابيع واردتها ان تكون
رمزاً للصمود من نوع ما ، لما كنت تبني الجسر ، حتى السلحفاة أضعتها ..
ماذا تريد الآن ؟

آه لو استطعنا نسف الجسر الذي بنيناه بأيدينا في تلك الأيام . كنت
أتصور اننا سنعبه .. لكن الاشياء حصلت فجأة .. أو هكذا تراءت لنا ،
فتركنا الجسر ومشينا . قالوا لنا : « اتركوا كل شيء .. وانجوا بأرواحكم » .
أرواحنا ؟ ماذا تعني الارواح ؟ آه لو اني مت ذلك اليوم .

وفكرت : نام أبي بعد أن فعل كل شيء .. نجا بروحه . انه ينام الآن .. أتذكر لما جاءه الموت ، ابتسم . صحيح ان ابتسامته بدت حزينة ، وأقرب إلى التسليم ، لكن لما أغمض عينيه ، تصورت انه سيفتحهما مرة أخرى . انتظرت . حدثت فيه بقوة . اقتربت . بدا لي نائماً . لما هزته ، بعد أن ناديت عليه مرات ولم يجب ، تأكدت انه انتهى . سقطت الدمعة من عيني دون ارادتي . وحتى هذه اللحظة لا أزال أراه نائماً . لقد نام بعد أن قام بكل ما يستطيع عمله . انتهى من بناء سور البستان . حوّل الساقية . استحضر قبل أسبوع من نومه الأخيرة حصان الجابر وشيبي الفرس . ولو أراد ان يفعل شيئاً آخر قبل نومه الأخيرة لفعله .

الجسر بلونه الفضي المرقط ، والأغصان التي وضعناها عليه تخفيه . كان الجسر آخر صورة للفرح .

قلت لحامد بعد أن اصبحنا بعيدين عن الجسر :

- حامد .. لماذا تركنا الجسر؟ لماذا لم ننسفه؟

نظر إلي ببلاهة وردد ورائي :

- صحيح لماذا لم ننسفه؟

وتساءل بحزن :

- هل صحيح اننا لم ننسفه؟

سألته بحيرة وكأني أراه لأول مرة :

- هل فعلت أنت؟

- ماذا؟

- هل نسفت الجسر؟

ومثل طفل مذنب ردد دون وعي :

- لا .. لا .. لا .

وبعد فترة طويلة تطلع إلي برعب وسألني :

- وأنت ألم تنسفه؟

لما هززت رأسي بالنفي ، ارتمى حامد على كتفي وبكى . كان بكأؤه يشبه بكاء الاطفال .

لما أصبحنا قرييين من المدينة ، قال لي حامد بصوت ضعيف خائف :

- ليدخل كل واحد منا بمفرده .

- لماذا؟

- لا أدري ، ولكن يجب أن نفعل ذلك !

... ومنذ ذلك الوقت لم أر حامداً ، ولم أسمع عنه شيئاً !

لو أن أجزاء الجسر تطايرت في الهواء ، لو أن الاغصان التي حوله احترقت ، لشعرت بنوع من العزاء . صحيح اني لم أمدد يدي إلى البستان منذ الساعة التي نام فيها ابي ، لكن ابي لم يترك الدنيا الا بعد ان فعل كل ما يستطيع .

صرخت بجبروت وحققد :

- وردان .. ايها الجبروت الزائف .. يجب ان تموت .. وأموت

معك .

اقترب مني وردان ، أخذ يحتك بساقي ، كأنه يلتمس عفواً . قلت له

بدلال :

- انت الكون المتماسك .. أما زكي نداوي فأرجل ذبابة خضراء ..

أتعرف الذباب الأخضر؟ إنه ذباب الموتى !

وفكرت : على الانسان ان يرتكز .. أريد ان ارتكز على شيء ما !

بصقت . ضربت وردان ضربة خفيفة بالمشط . قلت له بسخرية :

- أغفر لي خطاياي .. أنت كلب كثير الغفران !
بصقت من جديد، تعمدت ان تسقط البصقة على قدمي .. أمسكت
البندقية من فوهتها وحولتها نحو وجهي .. وفكرت : أيها الصياد الذي ساقه
من خشب .. توقف !
هدر صوتي كشلال :

- يجب ان أتوقف عن كل شيء .. ما أنا الا انسان تحولت شرايينه
إلى سواقي مليئة بالبول !
ومن جديد ناديت وردان . قلت له وأنا ألقى البندقية وأهوى على
الأرض :

- يجب ان نجلس كأبي رجلين عاقلين .. وتحدث !
دار وردان حولي كمنحلة . أرى في عينيه الغناء وما يشبه التحدي .
مددت يدي نحوه وأمسكت برجله وسحبته . قلت له بصوت رقيق :
- يجب ان نقلها .. أسمع ما أقوله لك ؟ ان نقلها !
وفكرت بالجسر . شعرت بالخيبة والضياح وبآلاف الأحزان . حسدت
أبي لانه ينام نوماً عميقاً متواصلاً .. وبدأت السماء تمطر .
المطر الأبيض الناعم يتساقط . صوته الصغير يخرق ذرات الهواء
ليستقر فيها . رائحة الأرض تعوي بذلك الدخان الذي لا يرى ، ولكن
تفاعله السريع ، ازدحامه في الأشياء ، ثم تمدده ، يجعله مادياً لدرجة
لا تصدق .

رفعت وجهي نحو السماء . أغمضت عيني وفتحت فمي ورثتي .. ومع
الصوت الصغير الهابط من فوق ، والنابع من الأرض ، قلت أخاطب وردان
أو مخلوقاً آخر :

- على الإنسان ان يحب الأرض ، لانه لا يمكن أبداً ان نمنح

شيئاً أقوى منها. الأرض تجعل الانسان يرتكز على شيء قوي .. ويغفو.
الأرض تتفجر بالخصب والمياه. الأرض شيء رائع .. لا.. الأرض كل
شيء!

نهضت وتلفت حولي. كنت أخشى مرور أحد، وسماع هذا النشيد
الأخرق منه. تساقطت قطرات المطر، وتسربت إلى الأرض. فكرت
بالكلمات البائسة التي قلتها. ناديت:

- وردان.. ماذا تفعل لو انك فهمت الكلمات التي قلتها؟

اصطفق جلد وردان، فأصابني رذاذ قوي، ولّد في جسدي
الرعدة. قلت لنفسي: القوة ما احتاج إليه. لو كنت قوياً بالمقدار الكافي
لانتفضت مثل وردان.. يجب ان ينتفض الانسان ليزيل عن نفسه ما علق
فيها!

وفكرت: الصياد زكي نداوي.. صياد خائب، يفتح فمه للمطر..
والسلحفاة الميتة أفضل منه!

قلت لنفسي: وردان حيوان داعر، لا يترك لي لحظات الصفاء التي
أريدها. عندما يبدأ عقلي يصفو، وأكاد أمسك بطرف حبل المشنقة،
ينتفض.. ينتفض ويعوي بشكل عدائي..
سألته:

- أترى شيئاً أيها المنذر بالخراب؟

تلفت لعلبي أرى شيئاً. لم أر سوى قطرات المطر تنساب بنعومة جارحة
من السماء. كان لسقوطها نغماً لذيذاً دافئاً. أما الأشجار البعيدة، على
طرف المستنقع، فقد أخذت تلمع.

سألت وردان بصوت كئيب:

- أتبكي علي يا وردان لو مت؟

عوى من جديد. كان عواؤه هذه المرة ممدوداً فارغاً، وكأنه يتغلب على السأم. قلت له :

- ستكون ختيراً أجرب لو بكيت علي !

وتغير صوتي تماماً :

- لا أريد من أحد أن يبكي علي .

وتذكرت أشياء حزينة. تذكرت المرات التي بكيت فيها. تذكرت وجوه الذين أعرفهم .. بدت لي الوجوه باكية شديدة الكآبة. قلت لنفسي : هل تشعر هذه الوجوه بالهزيمة إلى هذا الحد. تبدو كثيفة هكذا؟ قلت لوردان :

- فقد الناس القدرة على البكاء .. لا .. انهم يكون بدموع تتساقط إلى الداخل .. انهم سيكون كل الوقت .. حتى أثناء النوم !

نهض ووردان. وقف على قائمته الأماميتين كأنه يريد أن ينطلق. أعرفه عندما ينوي شيئاً. قلت بصخب :

- أريدك ان تستمع الي مرة واحدة أيها الكلب السائب !

كان عواؤه صاخباً حاداً هذه المرة. تراجع قليلاً استعداداً للركض. صرخت :

- تجمد في مكانك ، أنت مخلوق مليء بالبذأة والجهل !

وواصلت التفكير بالكلمات الحكيمة التي غزت رأسي : بكاء الناس ، الدموع. قلت بحدة أخطب مجهولاً :

- نحن بشر هذه الأرض لا نعرف غير البكاء .. منذ ساعة الميلاد وحتى ساعة الرحيل . لا نعرف سوى ان نبكي .. ألا نستطيع ان نفعل شيئاً آخر؟

كان ووردان وهو يقف بجانيبي ، بعد أن نهزته بخشونة ، ينظر الي بين

لحظة وأخرى ، كأنه يريدني ان آذن له . وواصلت التفكير بهدوء : هل
يستطيع بشر هذه الأرض ان يفعلوا أكثر من البكاء؟
فجأة ركض وردان . اندفع بقوة يسابق الريح . قلت وعيني تتابعانه
لأرى ماذا سيفعل :

- حتى الكلاب لا تحتاج إلى اذن .. ان هي ارادت ان تفعل
شيئاً !

رأيت وردان يندفع بقوة . نهضت . رأيت على البعد رجلاً يذب
بهدوء ، وقد بدا لي انه يحمل على كتفه شيئاً ..
صرخت لأمنع وردان من ازعاجه .
وانتظرت ..



الفصل السابع

رأيته قبل هذه المرة.

وجه معجون بالزمن ، فيه صلابة ورضى . عينان مرحتان صغيرتان ، كأنهما تتحدثان دون توقف .

قلت لنفسي ، وأنا أقدم له سيجارة وأأخذها ببساطة خارقة : صياد مر ، محكك .. وإلا لماذا يضع البندقية على كتفه بهذا الشكل ، كأنه لا يحس بها؟

قال ، وهو يربت على ظهر وردان الذي جلس بيننا :

- في يوم ماطر حظ الصيد أكبر منه في يوم غائم!

بتواضع مصطنع أجبت :

- أنت أعرف!

- فيك البركة.

امتص مني شعور الكبرياء فجأة . قلت بطريقة بائسة :

- أريد أن أكون صياداً .. أحاول ان أكون!

- في مثل هذا اليوم لا يخرج إلى الصيد الا من ابتلي بهذه

السوسة .

لما رأى وجهي جامداً تابع بنبرة أقرب إلى التبسط :

- أقصد الصياد وحده يحتمل هذا الجو. بعض الصيادين يعتبرون
الصيد نزهة.

حاولت أن أدافع برعونة :

- الصيد هواية ورياضة.

ابتسم بحزن وقال :

- والله يا ابني الصيد مرض ، لعنة .

- منذ كم سنة وأنت تصيد ، يا عم؟

- ماذا تظن؟ قدر..

سألته من جديد، لنبداً حواراً ذكياً :

- قل لي كم عمرك أقول لك منذ كم سنة وأنت تصيد!

- حتى لا تتعب أقول لك عن عمري .

وضحك بطريقة لذيذة ، كأنه يتذكر أشياء كثيرة ، ثم هز رأسه بما

يشبه الأسف ، وتابع :

- عمري ، يا ابني ، أربع وستون سنة !

لم أكن أظن أن له هذا العمر.. رددت وراءه باستغراب ظاهر :

- أربع وستون سنة !

- والآن.. كم تظن .. منذ متى وأنا أتصيد؟

سيطرت علي روح الإعجاب ، وبدأت تغزو فكري الأرقام المحتملة :

ثلاثون سنة .. أربعون سنة ، وبطريقة فجأة حاولت ان احسب ، ان اقدر

رقماً ، قلت دون وعي :

- أربعون سنة !

غير جلسته قليلاً . رفع رأسه إلى السماء ، وكأنه يحاول السيطرة على

عواطفه ، وقال بنبرة جديدة وملبثة بالابتسام الحنون :

- مطر جيد.. خير.. خير!
- لم ترقني هذه المقاطعة. الابتعاد عن السؤال الذي اعتبره قاسياً لدرجة لا يحتمل التأجيل. قلت:
- تقديري صحيح.. أربعون سنة!
- أربعون.. لا أكثر ولا أقل؟
- ما دام عمرك أربعاً وستين.. ولو فرضنا انك بدأت وعمرك اربع وعشرون..
- لا.. أكثر.
- قالها بهدوء ظاهر يتيح لي فرصة جديدة.
- خمس واربعون.
- أكثر!
- خمسون سنة.
- قلتها وكأني ألوم نفسي على هذه المبالغة.
- رفع وجهه إلى السماء ليتيح لمزيد من المطر ان يحتل وجهه، حتى إذا تسربت القطرات ما بين الغضون والجفنين، حاول ان يتذوقها. تمطى أكثر من مرة، ثم اعتدل في جلسته، قال بلهجة صلبة، كأنه يعتبر الأمر في منتهى الجدية:
- صار لي، يا ولدي، اثنان وخمسون سنة!
- وتغيرت نبرة صوته قليلاً وتابع:
- اثنان وخمسون سنة في هذه السوسة القاتلة.
- وضحك بحزن وسألني:
- كثير؟

- عمر.. عمر طويل!

اضطرب فكري. الذي أراه ليس رجلاً، انه تاريخ الصيد منذ بداية الخليفة حتى هذه اللحظة. كنز من المعرفة والخبرة. قلت لنفسي: يجب ان اتقرب من هذا الرجل. أن أتحوّل أمامه إلى آذان صاغية لعلّي أصبح صياداً وألوي عتق هذه الأفعى.

وتراءت لي الزانية. كانت وحدها تسيطر علي في تلك اللحظة. أردته أن يقول لي بكلمات قليلة كيف استطيع أن أغزل ريشها، أن أحوله إلى وسادة!

فكرت: ماذا لو سألته عنها؟

أحسست بسؤالي فجأً. قلت لنفسي: ماذا أقول له؟ كيف أسأله؟ ماذا تعني بالنسبة له؟ وإذا قال لي: اتركها! اتركها يا ولدي. انها الشيطان.. ولا تستحق هذا العناء كله! أأصفها له؟ أقول كيف مدت اجنحتها في الهواء مثل شرع سفينة؟ كم كانت متألقة وكبيرة؟ وأي شيء آخر يمكن ان اقله؟

سألته دون تفكير:

- من اثنتين وخمسين سنة وانت تصيد؟

قال بالبساطة التي بدأ بها حديثه:

- لما كان عمري اثني عشرة سنة، كان أبي يدفع إلي البندقية، ولا يعطيني سوى طلقة أو اثنتين ويقول:

«كل طلقة بطير.. وإلا لن تمسك البندقية مرة أخرى».

وجر بندقية قديمة متآكلة. وضعها في حضنه ومرت عليها راحة يده بحنان، تمسح عنها قطرات المطر.. وقال:

- طبيعي غير هذه البندقية. هذا النوع لم يكن منتشرًا في تلك

الايام . ايامنا كانت البواريد الدارجة من نوع آخر . ومن ذلك الوقت ..
وحتى الآن وانا في البرية !

سألته بلهفة واستغراب :

- كل يوم؟

- ايام الشتاء .. تقريباً كل يوم .

ولكي يمتص الغرابة ، انخفض صوته وتابع :

- أسكن قريباً من هنا ، وبعد العمل .. لا ، حتى أثناء العمل ،

البندقية دائماً معي ، وكل يوم ، قبل الغروب ، أقوم بجولة !

ومن جديد تغير صوته ، وهو يواصل حديثاً مؤكداً اني أتابعه بلهفة :

- ساعتان أو ثلاث في اليوم .. والرزق على الله ، بعض الاوقات

تعثر بالصيد أكثر مما تتصور .. وأوقات أخرى ناشفة .

قلت وكأني أفجر قبلة :

- لقد رأيتك من قبل .. أظن قبل ثلاثة أيام أو اربعة . رأيت دخاناً

أول الأمر ، فلما اقتربت رأيتك تصلي !

قهقهه مثل طفل ، نظر إلي وعيناه تتساءلان بمرح .. قال :

- تعرف .. يجب ان يحناط الانسان . عندما أريد الصلاة أشعل

ناراً . النار أو الدخان تظهر من مكان بعيد ، وكل من يرى الدخان يعرف ان

هناك انساناً . الحيطة ضرورية .. لأن الصياد اذا رأى الطريدة يصبح

مجنوناً ، فلا يرى غيرها .. ولا تغضب إذا قلت لك ان الصياد في بعض

الأوقات أعمى ومجنون !

كانت الزانية ، المعجونة بدم الأبالسة تطفو في خيالي كصورة وحيدة .

قلت له كبداية للوصول إليها :

- ما هي أخبار الصيد؟

- السمن كثير!
- وغير السمن؟
- دجاج الأرض.. بط.. زرازير، لكن أكثر شيء السمن.

وتمثلت في خيالي مرة أخرى: كبيرة مليئة بالعنفوان، وشديدة التعلق. كدت أسأله عنها، لكن في لحظة ارتبكت. دارت في رأسي أسئلة كثيرة.. قلت له دون تفكير:

- ودجاج الأرض.. كثير؟!
- رأيت ابتسامة سعيدة تطوف على وجهه عندما ذكرتها. بدت في عينيه رغبة للحديث. صمتُ تاركاً له ان يقول كل شيء.
- التفت إلى وردان، ربت على ظهره، أمسك بأذنيه، وسأله بلهجة حنونة:

- وأنت.. أتساعد الصيادين أم تتعهم بضياحك؟
- الكلب بعض الاوقات مصيبة، فبدلاً من ان يساعد يصبح بحاجة إلى من يساعده!

قال وهو يرفع في وجهي يديه الاثنتين:

- أنا وحدي.. لا كلب ولا أحد!
- سألته بطريقة اردت منها ان انتزع لنفسي مبرراً:
- دائماً وحدك؟
- حتى لو كان معي احد، فالصياد دائماً وحده، ولا يمكن ان يكون مع الآخرين!

قلت بطريقة تقريرية بانسة:

- صحيح.. تماماً صحيح!

- طبيعي .. لا يمكن للانسان ان يكون وحيداً في بعض انواع
الصيد !

قلت بتسليم ذليل :

- طبيعي !

قال وقد تغيرت سحته وجلسته فجأة :

- في وقت من الاوقات يكون الصيد تسلية ، ولا يمكن للصيد ان
يكون وحيداً. الانسان يجب ان يكون مع الآخرين ، يتحدث ، يتغلب
على الخوف ، يقاوم الضجر.. لكن .

- الصيد ليس تسلية ، ومثلما قلت ، الصيد سوسة ، والانسان اذا
اصيب بهذه السوسة لا يهمله شيء ، لا يقيم وزناً لشيء !
قال بطريقة مباشرة وحادة :

- الصيد تعب لذيد .. الله يخزيه ، اذا تملك بني آدم جعله مثل
كلب .

هزرت رأسي دلالة الموافقة . تابع :

- الله يخزيه .. لو لم يكن لذيدا هل تتصور ان تجد أحداً في هذا
الشتاء اللعين ؟

تطلعت إلى السماء والاشجار والافق البعيد . كان المطر لا يزال
يتساقط ناعماً لذيداً ، كأنه الغبار . أما رائحة الأرض فقد تداخلت مع
الطبيعة بحيث انها انتشرت في كل الأشياء . قلت اریده ان يقترب من
الزانية التي تلغ في دمي :

- هل صادفت بطا ؟

- قليل !

قالها دون اهتمام.. ثم هز رأسه كأنه يتذكر ، وبعد لحظة تحرك
خلالها أكثر من مرة ، قال :

- ليس في هذا المكان بط كثير!

وتطلع إلي كأنه يراني لأول مرة ، أو كأنه أحس ما يدور في رأسي
المليء بالعذاب . سأل :

- وهل صادفت؟

أجبت باندفاع :

- نعم

- أي نوع من البط؟

- جَلَط ، خضيري .. وانواع أخرى!

هز رأسه بتأكيد قاس :

- جَلَط نعم . خضيري ..

ومط شفثيه دلالة الاحتمال والنفي ، وسأل من جديد :

- وهل تفتش عن البط؟

- لا أفتش عن شيء محدد.. انت تعرف ان الصيد حظ .

قال وقد تمللم يريد ان يتحرك :

- لا أريد سوى دجاج الأرض .

وبعد لحظة صمت ، تابع يقول بنفس النبرة :

- ما أفتش عنه دجاج الأرض... ما عداه ..

ورفع يديه قليلاً بتسليم . كانت اشارته معبرة بوضوح عن الرفض .

قلت أريد ان اكتشف علته :

- صدفت قبل ايام دجاجة أرض .. لكن الخضيري ..

وحاولت بوجهي أن اعبر بشكل ما عما يطوف في مخيلتي. قال :
- والله يا ابني طلقاني قليلة ، ولا أريد غير هذه الدجاجات
المنحوسة !

- والبط الخضيري .. اين أماكنه ؟
تلقت حواليه ، كأنه يريد ان يتأكد من مكانه ، ليحدد على ضوءه
المواقع الأخرى ، حتى اذا اطمأن قال :

- البط عموماً قليل ، لكن يتوجد في هذه البقعة بعض الأوقات !
واشار بيده ، أشار إلى المستنقعات البعيدة !
قلت بطريقة اردته ان يوافقتني :

- وفي هذه الاماكن يوجد .
وانتقل اصبعي بين المكانين اللذين رأيت فيهما الزانية .
هز رأسه دون اهتمام ، وأضاف :
- يجوز .

وبعد لحظات صمت طويلة . قال كأنه يخاطب نفسه :
- الذي يبحث عن البط يتعب !
وقبل أن أجيب ، تابع :

- البط لعنة ، يحتاج ابن الستين كلب إلى حذر ومهارة .
ونهبض .. تطلع إلي من فوق ، وقال :
- وقبل كل شيء يحتاج إلى حظ .

عنت في رأسه دجاجاته . كنت راضياً عن وقوفه في تلك اللحظة ،
فقد اصطخبت الزانية في رأسي .. وفكرت أن أبدأ بمطاردة هذه اللعنة التي
تسكن عظامي . قال وهو يقدم لي سيجارة ملفوفة باليد :

- اذا رأيت الدجاجات اللعينة فيجب ان تقول لي!

وغمز بعينه وهو يعلق بندقيته على كتفه ويبتسم.

اردت ان اقول له ان يفتش لي عن الداعرة، ان يخبرني اذا رآها، ان لا يقترب منها، ومقابل ذلك فسوف اترك له الدجاجات كلها.

قلت لنفسى: لا أريد سواها. أما طيور السمّن، دجاجات الأرض، الزرازير، واية طيور أخرى، فانها لا تشبه الجسر الذي التمتع في ذاكرتي فترة من الزمن.

قلت بتحد:

- لوعبرت الجسر لوصلت.

وفكرت: ان أصل؟ ان أصل لماذا؟

قلت أحاطب وردان ونفسي والاحجار وكل شيء:

- لا يمكن ان اسلم.. ولا يمكن ان أتوقف، أما هذه اللعنة التي تصب في دمائي الآن، كأنها الشلال، فسوف اعرف كيف انتقم منها!



الفصل الثامن

تلقت نحوي أكثر من مرة. كانت قامته المديدة كأنها المشجب الصلب، والبندقية معلقة على كتفه. لما وصل قريباً من النهر، رفع يده بتحية أخيرة، ليقول ان طريقه إلى دجاجات الأرض عبر النهر. توقعت ان يقف لحظة يتترع البندقية، ويكون مستعداً، لكن بهدوء ثقيل واثق اجتاز الحافة العالية وانحدر. ولم أعد أراه.

قلت لنفسي: البشر اذا تجاوزوا عمراً معيناً فقدوا لذة المفاجأة، وإلّا كيف افسر سلوك الرجل؟ ماذا لو قفزت من امامه جنيته الخاصة؟ ماذا إذا قفزت مليكتي؟ هل يطلق عليها؟ هل ينادي علي ويقول: «الملكة.. الا تريدها ايها الرجل؟».

واستعدت صور الايام الماضية: الأرض الرخوة، قرب النهر، التحفز الذي يحول الاعصاب إلى أسلاك مشدودة، ويجعل كل شبح ملكة مفتونة، ثم الدوران الفرح والخائف، لأنها ستكون في اللحظة التالية. سألت وردان:

- هل يضم عالم الكلاب هذه الغرابة كلها.. يا وردان؟

نظر إليّ وعطس. ملأ الرذاذ وجهي. قلت له:

- ملعون ابوك يا عكروت. انت ندبة سوداء، ويوماً ما سأقتلك..

يجب ان تتأكد من ذلك!

وفكرت : زكي نداوي قاس كحجر الصوان . قاس ولثيم ، وإلّا كيف
أفسر التناقض في سلوكي؟ الآن اشم هذا المخلوق الذي يهزج حولي ، لأنه
عطس وتطاير الرذاذ من حلقه ووقع على وجهي ... وأمس كنت ارجوه ان
يتفل في وجهي مباشرة .. ان يفعل أكثر من ذلك ! لو فهم وردان كلماتي
فأيها يصدق؟

هززت رأسي بحزن ، قلت بصوت لا اضطراب فيه أبداً ، لكي
يسمع وردان ويفهم :

- وردان .. يجب ان تتأكد .. زكي نداوي شوال فارغ .. وكل يوم
يمتلئ بشيء ما .. يمتلئ بالبطولات ، بالتواضع الزائف ، بالملكة ذات
الجبروت .

نظر وردان إليّ وهو يتلع ريقه . كانت نظراته لا تصدق . قلت
بتصميم :

- وردان .. زكي لا يمتلك إلاّ الكلمات . والكلمات يبذرهما ،
كإله ، في كل الاتجاهات ، يذروها مع الريح ، يصرخ في الظلمة ..
ويتحدى حتى في الحلم !

راودتني رغبة التدخين . تصورت نفسي اعجز من حجر إذا لم ادخن .
انترعت سيجارة ، وبعد أن ملأت رئتي ، تابعت أتحدث إلى وردان
بهدهوء :

- انت يا وردان شيء له صلة بروحي . قلت لك آلاف المرات تعال
لنتحدث . وفي كل مرة أبداً ، تنصرف بحماقة تجعلني أكرهك . يجب ان
تهذب روحك يا وردان !

ضاعت الأفكار التي كنت اريد أن اقولها . والسيجارة بدل ان
تساعدني على الصفاء ، جعلتني أذهب بعيداً .
ترآت لي الحياة الماضية مليئة باللاجدوى . تصورت نفسي أكثر شؤماً

من غراب . أما العداء الذي يفرق صدري ويتجه في كل الانحاء . فانه طريق الخلاص ، مثلما هو طريق الهلاك .

قلت لنفسى ابرر الفكرة الذكية التي لمعت : لدى كل انسان طاقة غير محدودة . لماذا اذهب بعيداً؟ قرأت ذات مرة ان قلب الانسان ، يعمل بطاقة مضخة ترفع عدة أطنان من الدم كل يوم . هذا الانسان بمقدار ما هو جبار ، فانه يعادل ضفدعة . إذا استطاع الانسان ان يسخر امكانياته وعقله في الطريق الصحيح ، فانه قادر على كل شيء .. وإلا ..

وانبتق في تلك اللحظة قوس قزح . بدا بألوانه الزاهية المتداخلة أشبه بمهرجان . هكذا رأيته مئات المرات .. أما الآن ، فلا يبدو لي أكثر من جسر .

قلت بحزن :

- الجسر الذي بيناه هناك .. لماذا تركناه؟

والحزن يولد فجأة ، ودون ان يفكر فيه الانسان . وجدت نفسي حزيناً لدرجة لا اتذكر اني كنت هكذا . ارتيمت على الارض . لم تكن شجرة الجوز تبعد عني أكثر من عدة امتار . كانت مبللة بلونها البني الرمادي الذي اكتسبته من المطر ، وقوس قزح أكثر من مجرد ألوان . تألق اللون الأحمر ، البرتقالي .. الأزرق .. بدا الأخضر طاغياً لدرجة تصورت ان جسراً كان بنفس اللون عندما وضعنا فوقه الاغصان . ثم تذكرت اللون الرصاصي المرقط ، وتذكرت مرة أخرى الاغصان . قلت بصوت صاحب :

- الرب .. الرب بعد ان بيني جسره ، بعد ان تعبته الغيوم الصغيرة إلى مكان بعيد ، ويبشر الناس بالصحو .. هذا الرب ، ألا يهدم جسره؟
ألا ينسفه؟

وشعرت بالرطوبة تتسرب إلى ظهري . تذكرت عشرات الجسور التي مررت فوقها : المياه الخضراء لا تتوقف . الحجارة في بطون الجداول

الصغيرة براقه بيضاء كأنها تنفجر من الأرض . الاسماك وهي تتماوج بذلك النسق المذهل كأن رياحاً تحركها تركض بها .. وحاولت استعادة صورة جسرنا .



كان رثيف يمسح العرق عن وجهه باستمرار وهو يقف فوق الجسر . كان يثبت البراغي بطريقة عجيبة . يضع في حلقة مجموعة من البراغي ، ويتظاهر أنه يأكلها ، فإذا نظر إليه أحد ، تفل والتقط برغياً وثبته بخفة . وحتى إذا حان دور برغي آخر التفت إلى أقرب واحد اليه وتفل ، وبنفس الطريقة المرحه التقط من الهواء البرغي وثبته .

كان الجميع يحبون رثيف . كانوا يغفرون له سلاطة لسانه وحركاته القاسية ، لانهم يعرفون خفة يده ، صبره ، براعته التي لا تعرف حدوداً . كنا نسميه الأسطة ، وتراكض حوله ، لتقدم له ما يريد . وفي المساء كان يروق له ان يجدل من الاغصان الصغيرة اكليلاً ويضعه على رأسه . كان يقول : «أكاليل مؤقتة .. وكل يوم اكليل . أما الاكليل الكبير .. فيوم تنتهي من بناء الجسر» . وينظر حواليه بصمت ، ثم يتابع بصوت فيه نبرة الشثيمة : «أما الاكليل الحقيقي فيوم يجتاز الرجال الجسر» .

وتدوب كلماته في دماثنا ، فإذا رنح الصمت ، وطال ، كان صوت ذياب ، الذي يخرج من الحنجرة تماماً ، والذي يعطيه رونقاً خاصاً ، لا يتناسب مع حجمه الضئيل ، كان صوته يغزل في الظلمة :

- يا اسطة .. يجب ان تجدل الاغصان لذاك اليوم ، وتعطي الاكليل لأول من يعبر ، لأشجع الناس .

وبصمت ذياب ... وتتغير نبرة صوته قليلاً ، ثم يضيف بحسرة :

- أسعد الناس من يعبر الجسر قبل غيره !

ويرتفع صوت البدوي بالغناء. لم تكن نفهم من غنائه شيئاً، وكان يأبى ان يفسره لنا لكن كنا نحس به شجياً ثملاً واقرب ما يكون إلى غناء نجه.

قلت لنفسي وقد بدأ لي قوس قزح أكثر تألقاً: كان الجسر رائعاً وقوياً.

وفجأة سمعت طلقة تمزق الهواء..

قفزت كأن حية لدغتنى. نظرت إلى الضفة الثانية، لعلي اراه. الاشجار العارية تشكل سدا هشاً متداخلاً يمنع الرؤية. قلت لوردان:
- قتلها الشيخ!

حاولت ان استعيد صورته. بدت لي الصورة هشة ومتداخلة. اغمضت عيني لأتمثله كما كان. لمعت ابتسامة فرحة تملأ وجهاً مسناً، واقرب ما يكون لوجه أبي.

نفضت رأسي لأبعد الصورة. صرخت:

- وردان.. يا كلب الخييات والجسور المهزومة.. لماذا لا تساعدني؟

التقطت البندقية وسرت في نفس الطريق الذي سار فيه الشيخ. كانت البندقية ترتاح في يدي اليمنى، والتحفز يملأ شراييني. تنهت فجأة لصورة الشيخ، والذي بدا يشبه مشجبا. قلت بحزن:

- الصيد حظ وجنون. يجب ان اقنع نفسي بهذا.. إذا لم اقنع هلكت!

كان وردان يمشي إلى جانبي. كان لأول مرة منذ فترة طويلة، يمشي بهدوء ووقار، كأن كلمات الشيخ أذته.. فهو الآن يريد ان يثبت عكس ما قال.

وفكرت : لماذا لم أسأل الرجل عن اسمه؟ لماذا لم اتحدث معه فترة أطول؟ وهذا الرجل ودجاجاته الغبية، هل يعينان شيئاً بالنسبة لي؟ قلت لنفسني: لن أندم إذا سقطت الملكة من الضربة الثانية، ولن ألوم نفسي كثيراً. المهم سقوطها. ثم ان لدي من الطلقات الكثير.. أما الشيخ.

تابعت بصوت عال :

- ألم يقصد الشيخ عندما قال انه لا يملك الا طلقات قليلة ان يطلب مني؟ لماذا لم اعطه بعض الطلقات؟ صرخت بوردان الذي يسير بجاني:

- وردان.. كلانا مخبول بطريقة ما.. ألسنا مخبولين وغبيين؟

ووددت لو استطعت عبور النهر واعطاء الشيخ بعض الطلقات. يمكن ان اقدمها له دون احراج. أتظاهر ان الرغبة دفعتني لان أرى الدجاجة.. التي صاهاها الآن. وبعد كلمات قليلة، وبعد ان اقلب الطير بين يدي، وابدي اعجابي، امد يدي إلى المجدد وانتزع بعض الطلقات.. لن يرفضها، ولن يردني. وقد يصير على أن آخذ الطير. هل آخذ طيره؟ وماذا سيقول لو رفضت؟ الا يعيد الي الطلقات وقد جرحه رفضي؟

وانا.. اذا قتلت الملكة.. هل اعطيها لأحد؟ هل اعرضها، معاملة، كأبي طير، ليأخذها من لا يعرف كم تعني بالنسبة لي؟

كانت طيور السمّن ترق. كانت عالية وسريعة. وبدا الغروب قريباً. هبت رياح ثقيلة، كأنها اندار بمطر ثقيل.

قلت لنفسني: منذ أيام الصغر، والرب يبني جسره لتعبه الغيوم إلى الاماكن البعيدة، وليصحو الجو.. هل غير الرب عادته؟ وهل تعب الغيوم الثقيلة من الأماكن الأخرى لتمطر هنا؟

وامتلاً رأسي بأفكار مضطربة. فكرت بالجسر الذي يبنيه الرب،
وجسرنا، وجسور البشر الآخرين. قلت لوردان بصوت يائس:

- وردان.. هل تتصور ان يبني البشر جسراً ثم لا يعبرونه؟
رفع وردان ساقه وبال.

قلت له بحزن:

- وإذا لم يستطيعوا.. فلا أقل من ان ينسفوه!
وهبت الرياح مرة أخرى، كانت أقوى من قبل، وتراءت لي الأشياء
متساوية لدرجة اني قلت لوردان:

- لتمت الملكة في حياتها.. لماذا تتعب؟ ألا تتصور انها مجرد طير؟
طير أخرج!

ودون تفكير، وجدت نفسي اتجه إلى الغيضة التي رأيت فيها
الصيادين قبل أيام. كان الصيادون يقفون في «حلقة نار» ويصرخون..
والطلقات تترع في الفضاء من كل ناحية.. في تلك الأمسية بدا لي الصيد
لعبة بلهاء وأقرب إلى العبث.

قلت لوردان:

- اليوم يوم الشيخ. كانت طلقته قاتلة.. يا وردان. أما يومنا فسوف
يأتي.. لا تنخدع بأيام النحس التي نعيش الآن.. الصيد يا وردان حظ
وجنون!

كان رأسي يعج برائحة الخيبة. تصورت اني لوتابعت الملكة،
فسوف ارجع دون أن أضع على رأسي ذلك الاكليل الذي تعود الأسطة ان
يضفره بتلك الطريقة اللذيذة.

لم أكن، أحتاج، في هذه الساعة، اكليلاً من أي نوع.

صرخت بألم :

- ما أتمناه الآن قطرة من الدم لأغسل الصدا الذي يغلف روحي !



الفصل التاسع

.. وبدأنا نلتقي .

كانت لقاءتنا، في البداية، سريعة، ثم ما لبثت ان بدأت تطول، لكن رغم طولها ظلت تحتفظ بنوع من الغموض يجعل منطقة ما دون مجال الرؤيا. أو كأنها محاولة للدفاع عن سر ما. لم أسأله كثيراً عن دجاجات الأرض، ولم يتحدث عنها. وظلت مليكتي مجللة ببراقع وردية وتعيش في خيالي.

- ما هي أخبار الصيد.. يا عم؟
- السمن كثير!
- وغير السمن؟
- لا بد وانك رأيت اسراب الزرازير البارحة. كانت كثيرة لدرجة لم أر مثلها منذ سنوات طويلة!
- رأيتها، ولكن انت تعرف ان لحمها ليس لذيداً!
- يوجد من يحب لحمها!
- وغير الزرازير؟
- ماذا تريد؟
- مجرد سؤال!

- غداً يأتي الربيع ، ويأتي معه الفري... ثم الترغل ، الخير كثير.

الخير للامام!

وينقطع الحديث. لا اجرؤ ان أسأله عن البط ، عن الملكة .
ويتجنب ان يتحدث عن دجاجاته . فاذا طال صمتنا ، برقت عيناه بفرح
خفي ، وكأنه تذكّر موعداً.. ونهض . كان يفعل كل شيء بهدوء مميت ،
وكانت الثقة تنبع من خلاياه كلها . يأخذ نفس الطريق ، حتى إذا وصل
إلى حافة النهر ، التفت نحوي ، ورفع يده بتلك التحية ، التي تشبه اشارة
قائد يبدأ المعركة .. واختنى .

وأحاور رفيقي المجنون ، بئر الصمت الذي لا يفرغ ولا يفيض :

- وانت يا وردان . ماذا تقول ؟ هل جاء حظنا اليوم؟

ويقفز العكروت . يتشمم الأرض ، سيقان الاشجار ، الحجارة ..
ويبدأ : بيول هنا ، بيول هناك ، يعوي بتلك الطريقة الفجة ، يطارد
العصافير الصغيرة ، كأنه يتدرب لأيام الفري . وأضبع في البقعة الخطرة .
أدور في كل الأماكن ، لأصل . وهناك تصيبي الرعشة . ومشاعر الخيبة .
فأحس برغبة البكاء والانتظار.. وتمر في رأسي أفكار عريضة لا يقوى
الانسان ان يتركها تنساب من لهاته !

وأعود كل يوم ، وفي الشناقة ثلاثة طيور أو اربعة . سمندان وشحرور .
ثلاث سمات . ثلاث سمات وشحرور . شحرور وثلاثة زرازير . زرزوران
وشحرور...

ذات مرة علقت في الشناقة بطتين . كانتا سوداوين مثل الليل
الاشهب . كدت أطيّر من الفرخ . قلت لوردان الذي التقط احدهما من
المستقع :

- اعرف ، يا وردان ، انه نوع رديء ، لكن أطول رحلة في الدنيا

تبدأ بخطوة !

انتفض وردان بتلك الطريقة التي لم تتغير، في محاولة لأن يجفف نفسه، وبدأ يلحس جلده، دون أن يجيب.
كنت أمسك البطة بثقة نسبية. أرفعها في الهواء، مثلما أرفع طفلاً، وأقول لها:

-- أيتها الزنديقة، يا ذات المنقار الزنجي، تمرغت بالذل من الطلقة الأولى! قولي لبنات جنسك أية لذة وحشية تخللت عظامك وأنت تموتين! ويدور وردان حولي. أرميها عليه، يتراجع. سقط على الأرض. أصرخ بقسوة:

- التقط الجارية يا وردان!

وما يكاد يتناولها ويعطينيها، حتى أهدها في كفي، وأقول لهما معاً:

- أنتن.. يا جواري الملكة. الجارية التي كانت تلمع أظافرها، الجارية التي تمشط شعرها، الجارية التي تدلق عليها العطر.. ويجتاحني الفرح.. أرفع واحدة بيدي اليسرى والثانية باليمين، أقارن بينهما.. حتى إذا امتلأت بالنشوة، أتابع:

- أصبحتما الآن بين يدي.. ولن يطول الوقت حتى تأتي السيدة الأولى!

وأعلق واحدة من رجليها، تاركاً رأسها متدلياً نحو الأرض، عكس كل الطيور التي تعودت أن أشنقها من رؤوسها، حتى إذا اصطدم رأسها بساقي أصرخ:

- أريد لمقارك الزنجي ملامسة الريح، لعلك في لحظة ما تعترفين. اعترفي.. إذا قلت لي شيئاً عن الملكة، أبعث فيك الحياة مرة أخرى. واترك لجناحك ان تقبلا الريح مرة أخرى.. وأنت يا وردان.. انت الشاهد الوحيد عل ما أقول!

في الاوقات التي كنا نقف ، يداعب وردان البطة. يضربها بيده ،
يعض رأسها ، وبعض الأحيان يعوي عليها .

والمملكة غائبة ، مسافرة . حتى الاماكن التي كانت مليئة بالشحارير ،
حول العليقة ، خلت منها تماماً .

وأفكر : المسافرون يعودون . كل مسافر يعود . والمملكة .. ألا تعود ؟
وأتصورها في رحلتها المذهلة . كم كانت أجنحتها زاهية . كانت
بيضاء ، ناعمة ، متألقة . أما رقبته وهي مفرودة في الهواء ، فأشبه ما تكون
بقصبة ذهبية طويلة .. طويلة وشديدة الاستقامة والنعومة .

ومن جديد أسألها :

- ألا تعودين أيتها المسافرة ؟

والثفت إلى وردان :

- لن أصفها لك . لقد رأيتها بعينيك الدامعتين . لا تقل انك كنت
ساهياً . كنت تعوي ، ولما أعطت جناحيها للريح قفزت . انتفضت . ورأيت
في عينيك ذلك الحزن الأسيف . كنت هناك يا وردان ورأيت كل شيء !
وأقول بتمتمة خرقاء :

- ايها الشيخ .. يا من لا اسم له . أين دجاجاتك ؟ ألم تر المملكة ؟ ألم
تخض دمك ؟ قل لي شيئاً يا عم .. التجربة ، السنوات الطويلة في الريح ،
تحت المطر ، لا يمكن ان تمر دون أن تراها .. بالتأكيد رأيتها . ربما
عذبتك . قل لي . كيف أستطيع أن أطوقها ؟ أن اخنقها ؟ أريد ان أقف ،
مرة واحدة ، فوق تلة الدهول .. فوق جسدها ، وأنتهي !

قلت لوردان :

- وأنت .. ماذا تقول ، يا غزال بلا قرون ! هل نستطيع أن نظفر ؟
ووردان حيوان متهتك ، قدر ، لا يفهم ، ولا يمكن تحويله إلى

حيوان آخر. الاذان الطويلة ، الجلد الذي يشبه جلد الحصان ، والعينان الدامعتان .. كل شيء فيه متناقض وغير مجد!

وتذكرت : بعد أن مات أبي لم يستطع أحد أن يركب فرسه . كادت تموت بعده ، ولولا أن أخي أبعدها عن البيت ، لهلكت . كانت تصهل بتلك الطريقة الحزينة ، وكأنها تنعاه .

- وأبي يا وردان كان حكيماً . شتم الكلاب . شتمها بقسوة . ظننت انه يظلمها ، لكن بعد سنين أجد روحك أقرب إلى روح الخنازير والأبالسة .. عندما أريدك لا أجدك . وفي الوقت الذي أقول لك : اسكن ، تحجر ، تحرك ، تقفز ، تراكض . أما اذا قلت لك ليتيس لسانك أيها المشربب في الظلمة ، فانه يتحول إلى لغو لا يتوقف لحظة واحدة .. يعوي .. يعوي ولا يتعب .

وعدت إلى تمتمة بائسة مع الشيخ :

- أنت .. أيها الشيخ ، أعرف انك لا تحب هذا النوع من البط ، لكن يجب ان ترى .. اذا رأيتها ستطوق المستنقع . سنحاصر معاً الملكة ، حتى إذا ظهرت ، اترك لي أن أقتلها . لم أشأ ان أتعدى على دجاجاتك ، وحتى اذا رأيت واحدة منها ، فسوف أتركها تنجه إلى مملكتك .. ولن أفرعها !

- لورأيت يا عم .. لقد قتلت أمس بطتين !

- جأط .. ها !

- لكنها كبيرة .. الواحدة تعادل عشر سمناات .

- سمناة واحدة أفضل من عشر بطات .

- يبدو انك تكره البط .

- لا أكرهها .. لكن ..

لماذا يصمت؟ انه يكرهها. عيناه عندما انزلقتا بعيداً عني كانت تمثلتان بالكراهية. هل يفتش عن الملكة؟ لماذا لا يقول؟ وهذه الدجاجات التي يلاحقها، التي يتعب في حصارها.. هل تشبه مليكتي؟ يجب أن أقول له رأيي. صحيح ان تعارفنا لا يزال في بدايته، لكن يجب اتقان اللعبة. الغموض اللذيذ الذي يطوق رحلته لن يدوم طويلاً.. والدجاجات التي يريدها، التي يغتالها، لا بد ان تنتهي ذات يوم.. ماذا سيفعل إذا انتهت؟
قلت له بغیظ:

- منذ أن بدأت الصيد في هذه المنطقة، لم أصادف أكثر من دجاجتين أو ثلاث!

ضحك بطفولة، وقال:

- دجاجات الأرض قليلة.. لكن الواحدة تعادل..

- وهل تصطادها كل يوم؟

وبقسوة أقرب إلى التحدي قال:

- وهل تظنها زرازير؟ بعض الأحيان لا يرى الانسان واحدة خلال

اسبوع كامل!

- ولا تريد غيرها؟

- لا ..

- وإذا لم تجدها؟

- انتظر!

- والبط؟

- الخضيري .. نعم.

وهز رأسه دلالة الحيرة والموافقة .

ماذا أقول عن هذا الشيخ؟ وأبوه عندما اعطاه البندقية هل أوصاه ألا يصطاد غيرها؟ وهذه الدجاجات الحزينة ماذا يغريه فيها؟
قلت بعصبية :

- برأيي .. البط أفضل من دجاجات الأرض .

- كل صياد وله مزاج .. وأنا مزاجي هذه الدجاجات اللعينة !

أراد أن يضحك ، لكن وجهه تقلص فجأة ، وكأنه لا يطاوعه .
استخرج سيجارة ملفوفة وأراد ان يدخنها ، لكن تنبه فجأة ، فقدمها إلي .
أخذتها . مدت اليه سيجارة من العلبة التي أحملها ، أخذها ساهياً ، وكأن أفكاراً تطرق باله في تلك اللحظة ، ما كاد يعب نفساً ، حتى انتابته موجة من السعال الحاد . هز رأسه دلالة الاسف . اعتدل ، وقال بتأكيد حازم ، وهو يقاوم السعال :

- منذ فترة طويلة لم أعد أطيق البط .

وبعصبية ظاهرة امتلاً وجهه بالتغضنات وبان عليه الازدراء . قال كأنه لا يكلم أحداً :

- هناك البط .

اردته ان يتكلم ، لكنه انتهر نفسه ، كأنه اكتشف الضعف فجأة .
نظر الي بقسوة ، وقال :

- هذه الأرض ليس فيها بط .

- ولكني صدفت الكثير .

- الفضلات !

وفجأة نهض ، كأنه لا يريد ان يواصل حديثاً موجعاً .

في تلك الامسية لم أستطع أن أحاصر سوى الزراير. كنت ألاحقها مثل لص، تحت الأشجار. كنت أضربها وأصرخ :

- أيتها الطيور الهجينة.. يا من آباؤها الغربان، وأمهاها البط الأسود.. أريد أن انتقم!

وتساقط. كانت كل طلقة تحمل ضحية أخرى. وكل ضحية تولد في نفسي كراهية أكبر لهذه الطيور.. رغم الألوان الزاهية الواقعة بين السواد والخضرة.

كنت أقبض عليها بقسوة، بعد أن التقطها من فم وردان. أعصرها.. اسمع صراخها كتريف داخلي.. وأقول لها بحقد:

- أيتها الطيور الحزينة.. أيتها الطيور التي أفلتت من الطلقة، اذهبي وقولي لأمهاتك: الصياد المطعون ينتظر!

وفكرت بأقوال الشيخ. وقررت أن أبدأ الرحلة الخطرة، مرة أخرى. لا يهمني ما يقوله في البط. فثلما له هواجسه وخصوماته.. لي مثلها! وفي تلك الأمسية كانت الشناقة مليئة بالزراير. وفي وسط الظلمة كانت تسكن سمنة. كانت السمنة تضعع.. وقد أكتسبت بسرعة لونا أخضر مسوداً.. وكانت الوحيدة التي استطعت ان التقطها من ركام الزراير.

أما الشيخ فبعد ان عبر النهر.. إلى الناحية الثانية، فقد خيم على الجو البارد صمت قاسٍ. انتظرت طويلاً لعلي اسمع تلك الطلقة الرحيمة... وانتظرت.. لكن الصمت البارد ظل يخيم على كل شيء.. وتأكدت ان الشيخ لم يلتق بملكته.. قلت بصوت مخذول:

- الشيخ ينام حزناً هذا المساء.

ابتسمت بحزن.. اهتز رأسي دون ارادة.. واندفعت الكلمات من حلقي.

- وأنت يا زكي.. تنام حزيناً كل ليلة.. أنت كذلك من يوم
الجسر!



الفصل العاشر

قلت لنفسى وأنا أشق الزحام ، أريد أن أخلص من آخر مظاهر
البشر: الناس في المدينة يمثلون رضى . الضحكات على الافواه مثل
مزاريب الشتاء. الفرح اللزج يتقلب على نار دافئة ، ولا يلبث ان يتحول
إلى نشيد ملعون .

ضغطت على وردان . قلت له :

- لو رأى الناس الأجنحة المفردة في الهواء .. لا .. لا أقصد ذلك
أبداً . لو انهم رأوا الجسر هل كانوا سيتصرفون بهذا الشكل ؟
وفكرت : كانت بألوانها تشبه قوس قزح .. لا .. انها تشبه الجسر أكثر .
وتذكرت : كان الرجال وهم بينون الجسر بينون عشا للفرح
الحقيقي . كانوا يريدون أن يحملوه في عيونهم . كانوا ينتظرون تلك الدقيقة
التي يرون فيها الجسر وقد بدأ يتحرك ، يركض ، ليصل إلى النهر ويرتمى
فوقه ..

قلت لنفسى : تركناه سبعة أيام يرقد وحيداً في الظلمة .. لم يكن
وحيداً تماماً . كنا قريبين منه . كنا في النهار نقرب أكثر . نمسح جوانبه
بأيدينا . نحضنه ، نعني بقربه . وكنا نتظر أن يتحول إلى رجل . لو تحول
إلى رجل لأصبح أجمل أغنية .. لكن فجأة انتهى !

قلت بصوت مرتجف :

- لشد ما اتمنى الاقتراب منه الآن . لو وضعت يدي عليه مرة أخرى لصعقتي الموت . كان مميتا في صلابته وجماله .

وفكرت : ذات مرة .. قلت له كما لو انه انسان : يجب ان تماسك حتى آخر ساعة . لا تخف من أي شيء . الظلمة ساعة وتنتهي . الشمس تتربع فوقك . انت الوحيد الباقي .. وغيرك مثل أي ملك أو أجنبى مرّ بسرعة في هذه الدنيا .

وتذكرت : في احدى الليالي بدا والظلمة تحيط بكل شيء ، كأنه النهر . لمع في ضوء القمر . قلت له برجاء : « اختف أيها العنكبوت . يجب أن لا يراك أحد بهذا الزهو الناصع » وأغمضت عيني كأنني في حلم ، لكي لا أراه جميلاً هكذا . ناديت على ذياب وقلت له برجاء : « أنت يا ذياب تعرف كيف تغني . غن له . يجب ان تغني جيداً ، فهذا الحصان الذي تراه أمامك الآن يعادل عشرات الرجال » .

ودون حذر وبعضية أبعدت يد ذياب عن كتفي لما أحسست انه يحاول منعي من الكلام . قلت له : ماذا تظن ، يا ذياب ، ان الرجال سيفعلون لو اننا لم نبين الجسر؟

كان ذياب يفهم كل كلمة . كانت يده في الظلمة تشبه عيون الخيل : أنيسة ، مشبعة بالفهم ، لكنه لم يرد أن أتحدث بصوت عالٍ . قلت لنفسي : آه لو ان الناس رأوا الجسر . من يراه لا يستطيع الابتعاد عنه ، لا يستطيع مفارقتة . لكن الاشجار الذابلة فوقه ، والغبار الذي يهب عليه كل النهار ، دون أن يمر عليه أحد ، يجعله حزيناً ، حتى لكأنه يبكي .

.. وأتذكر .. لما أصبحنا بعيدين تماماً ، قلت ، ونايف يسمعي :

« أيها الإله المعبود هل ترضى ان نتركه؟ »

أطل نايف في عيني. اقترب من وجهي ، حتى لامسني تماماً ، وقال
بفرع :

- أنت تقصد الجسر. ألا تقصده؟

ودون ارادة امسكت بكتفه بقسوة ، هزته حتى كاد يرتمي ، وظللت
أقول : نعم .. نعم ، وانخرطت في البكاء !

لا أحد في المدينة رأى الجسر. لوأن جسراًبني في المدينة لكان آلاف
الناس حوله ، يرقبون لحظة ميلاده ، لحظات نموه. يتناقشون ، يختلفون ،
يتوهمونه كبيراً مضيئاً. يتوهمونه ارتفع في الهواء قبل ان تفك عنه الاساور
الخشبية .. أما على هذا البعد من المدينة ، هذا البعد من الناس ، فلم يكن
أحد يتصور بهاءه أو قوته. لم يكن أحد يتصور الضياء المنبعث منه عندما
تسقط عليه شلالات الضياء من القمر. الجنود التسعة الذين بنوه ، هم
وحدهم الذين بكوا ساعة ميلاده .. وكادوا يموتون ، من الكآبة ، ساعة أن
تركوه. كانوا يريدون أن ييكوه ساعة موته ، لكنهم لم يستطيعوا !

ذات يوم قلت لرمزي الذي أراد ان يبول على طرف الجسر :

- لا تدنسه أيها الحيوان المتوحش .

استغرب كلماتي أول الأمر ، ثم أحمر وجهه فجأة وابتعد !

قلت له لما عاد :

- رمزي .. أنت تعرف اننا لم نقدم لهذا الإله الضحايا .. لو كنا في
غير هذا المكان لذبحنا خروفاً أو عجلاً .. أما هؤلاء (وقصدت الرجال
البعيدين .. والذين يبعثون لنا بالأوامر) فانهم لا يفهمون روح الجسور ..
يتصورونها مجموعة من قطع الحديد !

هز رمزي رأسه موافقاً دون كلمات . تابعت بحزم :

- وتخطئ كثيراً اذا قلت هنا .

لا أعرف لماذا نفض يده في الهواء ، وتابع دون أن يقول كلمة واحدة .

قلت لنفسي : ان للجسور ارواحاً .. والجسور التي لا يعبرها البشر ، لا يمكن ان تكون أمينة أبداً ، يمكن أن تنهار ، يمكن ان تجرفها السيول ، وقد تصاب كما تصاب الحيوانات بالامراض .
وعدت أتذكر مرة أخرى :

«لم أقل كل الاشياء التي أريدها لرمزي . نعم فكرت فيها ، لكن لم أقلها . ورمزي الذي كنت أنام وياه في نفس الخيمة ، والذي اراني صورة خطيبته مرات كثيرة ، وكان يتحدث اليها كما لو انها أمامه ، لم يكن يفهم أية مشاعر تطوف في عقلي» .

هل يمكن أن يحدث هذا؟

قلت للجسر ذات مرة :

- أيها الاكليل المصفور من الحديد.. أنت وردة كبيرة في هذا المدى الواسع !

ضحك الذين كانوا حولي ، وقالوا كلمات لا أحبها . الأسطة هو الذي حرضهم . قال في نهاية الكلمات الصاخبة :

- وانت .. ياذا العضلات الرخوة ، هل تستطيع ان تفك الجسر خلال ضعف المدة التي استغرقها بناؤه؟

ورغم حيي للأسطة ، فقد قلت له بغضب :

- هذا الجسر يجب ألا يفك .

وتجرات وقلت :

- هذا الجسر لا يفك ، صحيح انك أنت الذي بنيته ، لكن هذا الجسر تجمد الآن ، أصبح مثل الشجرة أولوح الاسمنت لا يفك أبداً .

ابتسم الأسطة بأسف، وكان كلماتي راقية له. شجعتني ابتسامته.
قلت من جديد:

- هذا الجسر، أيها الأخوة، لا يفك أبداً. والبراجي التي نقلها
الأسطة من حلقة وثبتها في الجسر، أصبحت جزءاً من الجسر، تماماً كما
تتحول الأرغفة التي نأكلها إلى جزء من الجسم، تصبح دماً ولحماً،
ولا يمكن أن تعود كما كانت أبداً!

وتجرات أكثر.. وفكرت.. لكن دون أن أقول لأحد: لو فكر
الإنسان باستعادة الأرغفة التي أكلها، فلا بد من أن يستعيدها بطريقة
ردينة للغاية. وفكرت في تلك اللحظة بالأشياء السيئة: بالفضلات!
رمزي قال بخفة لا يستطيع أن ينجو منها:

- المفكات التي ربطت البراجي.. والمفاصل المتقاربة، والتي تشكل
الزناد، يمكن فكها خلال نصف المدة.
ونظر إلى الأسطة يريد أن يوافق!
رفض الاسطة أن يقول كلمة واحدة. أما أنا فقلت بصوت عالٍ:

- هذا الجسر لا يفك. لا يمكن لأحد أبداً أن يفكه. الشيء
الوحيد الذي قد يحصل أن ينسف. أن يقتل. تماماً كما لو اردت أن
تنزع أرغفة من جوف إنسان.. انك تستطيع أن تقتله قبل أن يهضمها!
وفي تلك الليلة غنى ذياب. غنى وقتاً طويلاً، بعد أن ابتعدنا عن
الجسر. وانتهى الأمر بيننا أن أعطينا للجسر اسماً. ويستغرب الإنسان كيف
خطرت لنا تلك الاسماء في الليل المتأخر.

سميته الحصان، لكن الاسم لم يرق لأحد. وسماه رمزي: واترلو. أما
الاسطة فقد اقترح أن نطلق عليه الجسر رقم واحد، وما كاد ينطق بهذه

التسمية حتى وافقنا. وغنى ذياب للجسر والأسم والأسطة. ظل يردد اسم
الأسطة، حتى أن رثيف خجل. قال له بصوت فيه قسوة:
- وماذا فعلت حتى تتكلم عني بهذه الطريقة القاسية؟ هل بنيت
معبداً؟ يجب أن تتأكد ان الجسور تبني كما تبني البيوت.
وأضاف بعصبية:

- لا تفيد الجسور شيئاً اذا لم يعبر عليها الناس.
في تلك الليلة أصابني الأرق.. كانت حراستي تبدأ في الرابعة.
حاولت أن أنام ساعة أو ساعتين، لكن بعد ان تعبت من المحاولة ولم
استطع صنعت الشاي، رجوت الحارس الذي كان قبلي، وكنا نطلق عليه
لقب الجمل، ويصرّ هو أن نسميه باسمه، أو ان ندعوه بالكردي.. رجوته
ان يذهب إلى النوم قبل ان ينهي حراسته.
هكذا كانت العلاقة مع الجسر. علاقة مهمة، وأقرب ما تكون إلى
الرغبة في أن يكون شيئاً خارقاً.
قلت لذياب في الليلة قبل الاخيرة:

- لو غنيت للجسر، فانه يقوى، يتدعم، تماماً مثلما تغني الأم
للطفل لكي ينام.

رفض ذياب الغناء، إلا إذا غيرت الفكرة. قال:
- أريده ان يبقى حياً ويقظاً كالحرص.. إذا اردت أن اغني له
بهذا الشكل!
وافقت.

قال أحمد، المهووس بالقراءة والصامت، قال في الليلة الاخيرة:
- هذا الجسر يمكن أن يكون عبثاً.. لا أحد يحب أن يكون نبياً،
لكن انتظروا.

كان أحمد عندما تغيب الشمس ، ولا يجد شمعة ليقراً عليها ، يظل يعبث بالراديو من محطة إلى أخرى .. وعندما قال هذه الكلمات .. ربما سمع شيئاً لم يرد أن يقوله لنا .

بعد أن تركنا الجسر رأيت أحمد عدة مرات . كان يبيع الكتب على عربة ، وظل يقرأ . لكن لم أشأ أن أسأله عن أي شيء . ابتسمت له ، وبادلني الابتسام ، ولم يسأل ولم يتكلم .

كان أحمد يرد التحية بصعوبة ، كأنه لا يجيد الكلام . يتردد . ينظر في الوجوه بتساؤل أقرب إلى البلاهة . ويتصور ان الاصوات التي تخرج من الافواه مفاجأة ، كأنه لا يتوقعها ، حتى إذا تأكد رد بخجل !

قلت لنفسني : آه ما أفسى الذكرى .

وبغضب خرج صوتي :

- لو كان ذلك الجسر من القصب ، من الكرتون ، لكان ذلك

أفضل !

وتذكرت فجأة :

«أمسك الضابط كتفي ، كما لو انه يمسك كلباً قذراً وقال :

- أمش ، إلحق بالجنود . يجب أن لا تتأخر ، وإذا لم تفعل فسوف

أعرف كيف استعمل صلاحياتي !

وأشار إلى المسدس . لم أكن احتاج إلى هذه القسوة كلها . كان يكفي

أن يأمرنا فتمشي !»

قلت لوردان الذي أخذ يتململ من كثرة ما ضغطت عليه :

- في هذه الحياة أشياء كثيرة لا يمكن تفسيرها أبداً !

وتذكرت مرة أخرى :

«بعد ثلاث سنوات التقيت بالضابط . قلت له :

- أتذكر الجسر؟

ضرب الكأس ، وقال :

- اشرب !

وشربنا تلك الليلة . شربنا كثيراً . وفي الشوارع العريضة المضاعة ، وسط المدينة ، توقف . أراد أن يبول على تمثال ، وسط الميدان . قال بانفعال قاسٍ ، أقرب إلى العراك :

- يجب أن يبول الانسان على أشياء كثيرة في هذه الدنيا . أنت تفهم ما أقصد؟

قلت بسخرية ، لم أكن اريدها ، لكن انزلت على شفتي دون ارادة :

- لو كنت شجاعاً ، لحاولت أن تفعل شيئاً هناك .

أمسك بي بقوة . هزني . جرتني . كاد أن يوقعني على الأرض . قال لي بطريقة مسرحية :

- هل تتصور اني كنت جبناً؟

- لا .. لم تكن !

ولا أعرف لماذا أثارته كلماتي أكثر من قبل . غضب . تورم وجهه ، ثم فجأة قال :

- أريدك ان تقول كل شيء !

- لقد قلت !

- ماذا قلت؟

- لماذا لم ننسف الجسر؟

- الأوامر!

وفجأة تركني . تصورت انه سيؤذيني ، لكن ما فعله ، انه بال على قاعدة التمثال . بعد أن انتهى ، جلس ، قريباً من المكان الذي بال فيه ، أخرج سيجارة وبدأ يدخن .

كان منظرنا وسط الميدان والاضواء مثل منظر السعادين المتحاربة . كاد يبكي وهو يغرق في صمته . وحين طلبت منه أن تغادر الميدان قال بسخرية :

- اتركني يا زكي . اذهب . يجب أن تذهب .

حاولت كثيراً أن أسجبه ، لكن اصراره وغضبه ، ورغبته في العراك ، جعلتني أربض بجانبه ، كمخروف ، وتصورت من جديد انه لا يزال ضابطاً ، وانه لا يزال قادراً على أن يوجه لي الأوامر.. وأن يقتلني .

في وقت ما قلت له بغضب :

- يجب أن تكف عن هذه الطريقة . لم نعد جنوداً .. ويجب أن تتصور اننا لو أصبحنا جنوداً مرة أخرى ، فيجب أن ننسف الجسر .

قال بغضب :

- اقتلني ، ابصق في وجهي اذا لم ننسف الجسر!

وتطلع الي بمودة ، وتابع :

- ماذا لو عبرناه .. ألا يكون ذلك أفضل؟



الفصل الحادي عشر

.. ما كادت الأيام الأخيرة من كانون الثاني تنقضي ، ببرودتها القاسية الثقيلة ، حتى هبت موجة دفاء تزخر برائحة الانتقال .. فتفتحت الحياة وزفرت الأرض بروائح الخصوبة ، وبدت الطيور في حالة أقرب إلى الفرح الشيطاني ، بحركاتها الذكية الصاخبة .. لكن ما كاد يطل الاسبوع الثاني من شباط حتى تغير الجو من جديد. انفجرت الرياح الباردة فجأة ، وهبت ريح عاصفة ثلجية غطت الأرض في فترة قصيرة. وأخذ الثلج يزداد كثافة يوماً بعد آخر ، وكأن الطبيعة نصبت فحاً .. وبدأت .

كانت الطيور في الأيام الأولى للعاصفة كالافاعي المحاصرة بالنيران . كانت ضعيفة مقرورة ، بأجنحتها الرخوة ، ونظراتها المتوسلة المليئة بالرجاء ، وكأنها فقدت عادة الطيران .

صادف في هذه الفترة بالذات ان توافد عدد من الصيادين ، وكأنهم على موعد سابق بالتآمر ، مع الطبيعة ، وبدأت تلك المطاردة اللعينة للطيور . لم يكن أي طير قادراً على الخلاص . حتى الطيور التي لا تؤكل لاحقها الصيادون ، وتلذذوا بقتلها ، وكانت ، وهي تتدحرج ، وهي تخفق بأجنحتها في محاولة للهرب ، كأنها الحيوانات السكرى . كانت تقوم وتقع . أما وقفاتها على الاغصان العارية فاصبحت أقرب إلى رغبة الانتحار .

وبدا الصيد في هذا الاسبوع هما ثقيلًا، أقرب إلى العذاب. فبعد الحركة الهائجة للتغلب على البرودة، أصبحت لذة الاغتصاب هي القانون. كانت الطيور، إذا التقت عيونها بعيون الصيادين تطير مسافات قصيرة ثم تحط. أما إذا أخطأتها العيون فتتحول الى حجارة قاسية لا تتحرك. وفي طيرانها الفزع، تهوي على الاغصان، على الحجارة، على المرتفعات الصغيرة، وتتنظر من تلك المسافات القصيرة، بطريقة لم تغيرها أبداً: كانت تنظر كالاطفال تماماً. وفي عيونها ذلك الصراخ الخائف المشيع بالتسليم، حتى تراءت لي خلال فترة معينة، وكأنها ترفع أيديها بالتوبة والرجاء..

ولكن الناس لا يتركونها أبداً.



- اختزن البرودة يا وردان.. فالصيف لن يكون بعيداً. اختزن قدر ما تستطيع، أسمع ما أقول لك.. إذا لم تفعل سوف يتدلى لسانك وتشتمي.

وفكرت: ذلك الشهر الأعمى، المليء بالزوجة، بالريح المغيرة.. تجمد ذلك الشهر فوق رؤوسنا كالطير عندما يضاجع الهواء. كان ثقيلًا مليئًا بتلك الونة الصماء.

قالوا بغضب: «لا تتركوا الخنادق.. اربضوا كالحجارة، وعندما تلتقون الاشارة يجب أن تكونوا جاهزين لنقل الجسر ونصبه فوق النهر!» وفي الخنادق كنا نطل على الفراغ امامنا. كان الدوي يأتي من بعيد، ومن جانب واحد. والجسر في مكانه، بصلابة الحجارة.. ينتظر. ومنتظر. ويأكلنا العطش. كنا نريد النزول إلى النهر، حتى دون أن يقول لنا أحد، لكي نشرب. قالوا لنا بقسوة أقرب إلى السبي: «تسمروا ولا تتحركوا.. وإلى هنا سيأتيكم الماء والغذاء... والوامر».

انقضت ثلاثة أيام . كانت أياما طويلة كأنها أسلاك بلا نهاية . كنا نطل على الجهتين ، ونتنظر . والدوي المخنوق يعبر إلينا من جهة واحدة ، أما الجهة الأخرى التي تحمل إلينا الماء والاكل ، وذلك الأمر الصغير الواضح : «أنصبوا الجسر على النهر.. ودافعوا عنه حتى آخر رجل» فلم يأت منها شيء !

- ترتجف الآن .. ما أشد كآبتك يا وردان . لا تعرف كيف تتصرف . قلت لك مئات المرات في الشتاء لا تتوقف . تحرك باستمرار لتخلق في عظامك الدفء . أما في الصيف فاسكن . الت بنفسك في ظل شجرة .. ونم ، لكي لا يتدلى لسانك من العطش .. وتبدأ الشتيمة !
كنا في ذلك الشهر الاعمى ، في تلك الأيام السوداء من الشهر الأعمى ، نرتجف من الانتظار والغيظ . كنا نرتجف من المرارة في حلوقنا .. ومن اللاشيء !

لم نكن نعرف ما يجب ان نفعل . تصورنا كل شيء نفعله ، دون أن يعرفوا ، خاطئاً . وريضنا في الخنادق مثل جردان مذعورة ، والنهر .. على بعد أربعة كيلومترات . كنا في الليل نهبط إلى النهر . وقد فكرت مرات كثيرة باقناع الناس الذين حوي أن نسحب الجسر معنا . أن نقربه نحو النهر .. لننتهي من المهمة بسرعة أكبر .

كانت ليالي ذلك الشهر .. تلك الايام بالذات .. تلمع بالاضواء التي تنصب علينا والدوي المخنوق .. والانتظار .

جاءت سيارة الماء مرة واحدة . جاءت عند الفجر . ريضنا في الخنادق ، وقد اشتعل الخوف في قلوبنا . قال أحمد الذي لا يتقن سوى الصمت :

- التفاف .. التفوا وجاءوا من الخلف .

وذياب نفل في راحة يده ، وهلل . فلما اقتربت السيارة أكثر ، قال :

- أي شيء يشبه أي شيء : الموت والحياة . وقد حان موت الرجال .. يا رجال ..
وبدأ يغني .

لم أكن أتصور ان الماء يمكن ان يكون كريها لهذه الدرجة . جلس العريف بيننا . أشعل سيجارة ومص نفساً ، ثم قال :

- املأوا أية فوارغ عندكم .. الأفضل أن يكون الماء كثيراً !

وبعد أن صمت ، بدا وكأنه تذكر شيئاً . قال كأنه يخاطب نفسه :

- لا أعرف متى سنمر عليكم مرة أخرى .

لماذا أكدوا على تلك الكلمة اللثيمة ؟ لماذا لم يتركوا لنا أن نتصرف ؟

قالوا بوضوح زائد : «التقدم ممنوع .. حتى تأتي الأوامر» .

ولم تأت الأوامر . ظلت قابعة في ذاكرة الناس البعيدين .. ولم تأت !

قلت لوردان بنزق :

- لو كنت جنديا يا وردان لعرفت معنى الأوامر . أنت لا تطيع

أحدأ .. وحتى عندما تتلقى الضربات تريض بانتظار أن تقفز وكأن حشرة تلدغك باستمرار .. يجب أن تتعود الطاعة .

وفكرت : الطاعة ؟ طاعة من ؟ ومن أجل أي شيء ؟

قلت لنفسي : لو كانت تلك الأيام بلا طاعة ماذا كنا نفعل ؟

بصقت على الأرض . قلت بصوت عاجز وأنا اتحنح لأجلو صوتي :

- أنت يا زكي ضفدعة مطفأة العيون .. ماذا لو ابتلعت الآن حجراً

وصمت ؟

قفزت أمامي سمة . استخرجتني من دغل الماضي كله ، ودون أن

أحس أطلقت عليها .. فهوت . صرخت وأنا أطلب من وردان أن يلتقطها :

- لو لم يكن الثلج لقلت لك ان ما قتلناه فراية .. هل رأيت قفزتها؟ خفقة الجناحين ثم هذه الاستقامة والانخفاض .

ناولني وردان السمنة ، واصطفق جلده . كان ينتفض كأنه يتخلى عن شيء في جسده ، تساءلت : البرد ..؟ الضجر ..؟ الهزيمة ؟
قلت بهدوء مميت :

- على الانسان أن يتعود . يجب أن يتعود على كل شيء : البرد ، الوحدة ، الضجر .. وتراءت لي كلمة هزيمة . كدت أقولها ، لكن غصة أقرب إلى يد ثقيلة حزت رقبتني .
قلت لوردان :

- يجب أن نتعود شيئاً واحداً يا وردان !

تطلع اليّ ببلاهة . كان أنفه يسيل . أما عيناه فقد خالطتهما حمرة ، وبدا لي مقروراً . قلت أشجعه :

- لو سألتني : أي شيء يجب أن نتعود ..؟ لقلت لك دون انتظار : أن لا ننهم !

وتراءت لي صور الماضي : الخندق الطويل المتعرج . صهريج الماء الذي جاء عند الفجر ، وتركنا قبل شروق الشمس .. تركنا وسار دون أعضاء ، وكنا نرقبه بحزن .. قطعة القماش الملطخة بالوحل والدم .. وتراءت لي أيضاً صورة رمزي : عندما تركنا الخندق كان رأسه ملفوفاً بطريقة فجأة .. لقد سقط عليه حجر وفجعه .

قلت لوردان ، وأنا أمسكه من ذيله وأرفعه قليلاً في الهواء ، وهو يعوي :

- ادفن رأسك في الثلج أيها الفأر القطبي !

وفكرت : لو اننا نسفنا الجسر لكان ذلك رمزاً لبطولة ما.. صحيح
ان ذلك لا يغير في النتائج ، لكن أن نتركه هكذا.. ونعود!
وتدحرجت في ذاكرتي كلمات كبيرة لها طعم التراب الموحل :
البطولة.. المجد.. القادة.. حتى صهريج الماء . وهو يتدحرج على التل ،
ويصعد في الاتجاه الآخر، بدا كأنه كتلة من الوحل.. تتحرك!
قلت لوردان ، وقد طاب لي أن أفرص الى جانبه وأطبب على
ظهره :

- لو كنت مطيعاً بالمقدار الكافي ، لكنت الآن أفضل ألف مرة!
وبدأت أتذكر وردان في رحلاته المجنونة : لو سمع كلماتي البلهاء
كلها لأصبح قطاً أجرب كان يخوض في حقل العدس ، كما لو انه يخوض
في بركة ماء.. عندما يشم رائحة الفري يتوقف ، يرفع ذيله إلى السماء ، كما
لو انه يلوح بعضا ، حتى اذا اقتربت منه ، بدأ بتلك الحركة المذهلة ، حركة
لولبية جامحة.. وفي لحظة يقول لي بكل نفسه : سأتركها لك الآن..
ويقفز. كانت قفزته شامخة ، شيطانية.. وتخرج مذعورة. وأتركها حتى
توازن في الهواء ، أرفع البندقية ، وأطلق .

كثيراً ما يلتقطها وردان رأساً.. كان يسير بجانبها.. كان يطير.
وما تكاد تسقط حتى يلتقطها ويعود بها. وبعد ان يقول لي بكل رأسه :
خذها ، يتخلص ، يتخلص من بقايا الريش ، لكن عينيه تقولان أشياء
كثيرة أيضاً!

قلت لوردان ، وأنا أعبر المستنقعات باتجاه النهر :

- الثلج جعل الهواء نقياً لدرجة ان الانسان لا يستحق!
كدت أسقط على الجسر الصغير الضيق. توقفت قليلاً. كان الماء
الاخضر يحف أطراف الثلج ويذبه بنعومة. كأنه السيف في هذا المدى

الأبيض المترامي . قلت لما رأيت احدى حوامل الجسر منهارة بثبات ، ولكن لا تزال تحمل كتف الجسر :

- هذا الجسر أفضل من جسرنا مائة مرة .. احدى حوامله منهارة .. ولا يزال يقف !

وفكرت : الاسماك تأكل حاملة الجسر .. المياه تنخرها من الداخل حتى تميل .. ثم تنهار ذات يوم .. الفيضان الغاضب يصفعها دون رحمة حتى يقتلعها .. لكن الناس يمرون فوق الجسر !
قلت بصوت عالٍ وغازب :

- سينهار الجسر ذات يوم . يجب أن لا أسأل متى وكيف ؟ لكني متأكد أن هذا الجسر سينهار !

وفكرت : عندما يأتي الفيضان ، هل يأتي بأمر ؟ هل يطبع أحداً ؟
قلت بصوت مخدوش وساخر :

- لو اننا نسفنا الجسر !

وفجأة تغيرت طريقة تفكيري تماماً . قلت لوردان :

- قل لي ، أيها الإله ، ذو الآذان المتهدلة ، متى تشرئب آذانك ، ومتى تنظر إلى كل ما حولك خاصة إلى الأمام ؟
لم يلتفت لوردان . أعرف طريقته القاسية . انه يرفض ان يسمع كلماتي .

راق له أن يغرز خطواته في الثلج البكر ويخدشه . كان يلتفت بين فترة وأخرى لينظر إلى آثاره .. ثم يتابع بفرح . وفكرت : والانسان متى يشرئب ؟

بصقت على الثلج . قلت بصوت عالٍ :

- اية كلمات رديئة تندلق الآن من لهاتي لتفسد هذا الصفاء الأخاذ ؟

بصقت .. ثم استنشقت هواء لا أستحقه . قلت لنفسي بحزن : بعد أن قتلوا الغربان والشحارير، بعد أن ملأوا الهواء برائحة البارود، هل أجرؤ أن التقي بالملكة؟

ناديت وردان .. قلت له :

- تعال أيها الجاموس . يجب أن نفكر، أن نذيب عقولنا في التفكير لنستخرج من أعماقنا المظلمة قراراً . هل تسمعي أيها الجاموس المخصي؟

انتعشت روحي فجأة، ولا أدري لماذا تصورت الملكة تريض في المنحى، وانها ستقفز في أية لحظة .

الثلج ما يزال في هشاشة النوم : رقيقاً ناعماً، وأقرب ما يكون إلى الطفولة . قلت لوردان بصوت داعر:

- اترك الاشياء في أماكنها أيها الدعي .. لا ترعجها .. دع الطبيعة كما هي !

كنت أتخير مواقع قدميه لأدوس فوقها، وكأني شعرت بألم من نوع ما . لودست على ثلج لم يدس عليه أحد؟

تدفقت وردان بذعر . قلت لنفسي : رأى الزاني شيئاً . تنهت حواسي باستعداد متوتر . ولا أعرف أية مشاعر ملوثة جعلتني أتصور أن ما سأراه لن يكون أكثر من صهريج الماء .

سألت نفسي بصوت أقرب إلى التسبيح :

- لو أطلقنا النار، تلك الليلة، على الصهريج، ألا يحتمل أن

يكون العريف أو السائق قد قتل؟

استعدت صورة العريف : كانت الخطوط الخضراء الموشومة تملأ رصغه الايسر كله . كان الوشم يضيء في وهج السجارة .. او هكذا تصورت .. وتراءت لي صورة الرجل ينزف . هزرت رأسي وصرخت :

- لن أطلق.. لن أطلق، قبل أن أؤكد.

تقدمت بحذر. كان تردداً، يشبه بندول الساعة، يجتاح صدري.
كنت حائراً، تفرسني رغبة جارفة بالكف عن اطلاق النار، بعد أن رأيت
الطيور الفزعة تبكي كالاطفال في طيرانها القصير المذعور.. والصيداؤون
لا يوفرون شيئاً. أمسك الغراب، بقرف، بعد أن داس عليه، أمسكه
ولاح بقوة، ثم رماه.. فسقط في الماء.

قلت لنفسى: هل اتركها تفلت؟

قلت لوردان:

- لو اني اصطدتها الآن.. الا تعتبر كقطعة مسنة سقطت بين يدي؟
وفكرت: لماذا أطارد هذه الساحرة؟

وقلت بتحدٍ:

- لو كانت كأى طير.. لو كانت بليدة ثقيلة، لا تعرف اجنحتها قوة
الزوابع.. هل كانت تثير في نفسي شيئاً؟

أجبت بحكمة المسنين وهدوئهم:

- لا أريد إلا الملكة!

وفجأة تصورتها طيراً بليداً متوف الریش، تركز في قفص.

قلت لوردان:

- يجب أن تطيعني!

أطلقت في الهواء طليقة. كانت على لا شيء. أفزعت الطليقة ووردان.
التفت. اقترب نحوي، وأخذ يتابعني ليرى. قلت له بخشونة:

- الملكة اليوم تعادل ذبابة ميتة يجب أن لا تراها!

أمسكت بذيله حتى حولته عن وجهة الجسر مرة أخرى، وأخذت

أسير باتجاه العودة. عبرت الجسر، دست فوق الخطوات السابقة. قلت
لنفسي بحزن وبصوت يقرب من الاستغاثة :

- لا أريد أن أراها ذليلة مثلما رأيت الجسر. كان الجسر، ونحن
نتركه في ذلك اليوم، ذليلاً!



في طريق العودة.. صادفت الصيادين مرة أخرى. كانوا يمثلون
نشوة، ويتشققون هواء نقياً، ويصرخون اذا رأوا طيراً. وكانت الطلقات
ترخر في الهواء وتفسد كل شيء.

لما دست وحول الممر، قلت لنفسي، لسمع وردان :
- الحثالة.. الوحول.. الطاعة العمياء.. وحتى الصيد في حالات
معينة أمور تستدعي.. ولم أجد كلمة أضيفها.
بصقت.

أصطفق جلد وردان. قلت أنهره :

- أركض أيها التيس لتتولد الحرارة في جسدك، وتذكر أن الصيف
سيأتي. يجب أن تختزن البرودة.. والصبر من أجل الصيف الذي سيأتي.
وعلى الطريق الطويل الموحد، فكرت بتعاسة الحياة، ببلادتها،
بغبائها، ودون أن أدري سقطت في بركة مليئة بالطين.
وقفت بتسليم أخرس ذليل. نفضت قطع الماء عن ساقى.. امتلأت
راحتي بذلك اللون الكامد.. قلت بتعاسة :

- يجب أن تفكر بتعاسة حياتك يا زكي.. ببلادتها، بغبائها.. أما
الحياة الحقيقية فانها أبعد ما تكون عن هذه الكلمات التي تظن في أذنك
كأجراس كنيسة ريفية!



الفصل الثاني عشر

قلت لوردان :

- لا تقفز إلى الزاوية كجندب .. يا وردان أنت تعرف إني أحب هذا المكان، ثم أن الامكنة كثيرة .. كثيرة ودافئة، فلماذا تراحمني؟ أصبحت أتضايق منك .. أنت تعرف هذا وتفعله !
إلتوى وردان في الزاوية. تكوّم. تداخل رأسه في جسده .. وبدأ ينام.

نزعت ملابسي. شعرت بالبرد رغم أن المدفأة متروكة منذ الصباح تهدر بنعومة.

فكرت : كثيراً ما أحس بشوق مذهول لما أتخيل النار، عندما أكتوي بالبرودة أتصور النار: النعومة الدافئة، الحذر اللذيذ، وذلك التواصل والتآكل مع شيء ما.

سألت نفسي : لماذا أشعر بالبرودة داخل الغرفة؟

وعدت أفكر: المعركة تبدأ بصمت بيني وبين وردان، كل ليلة. أخلعه من مكانه، كما أخلع الحذاء، أخلعه بحقد، بقسوة، أرفعه، أرميه، أجره من أذنه الطويلة، من ذيله، وأحياناً أخرى أطبب على ظهره، أوقفه، أكلمه كما يكلم الرجل امرأة حببية : «أنهض، انهض،

أتسمع ما أقول لك؟ أرى عينيك، ارفع رأسك كي أراك. يجب ان تسمع يا وردان، لا أصدق انك غارق في النوم لدرجة لا تسمعي». ويخور كهربيد. يتدلل. يرفع رأسه للحظة ثم يعاود النوم. ويخشن صوتي: «وردان.. يا وردان، لا تعذبني، انهض، أنت سمكة فضية، ابق نائماً، لكن انتقل إلى هذا المكان». وأشير إلى المكان الآخر!

العلاقة مع وردان علاقة حب متعب. قلت له بعد أن انتزعت ملابسي، وارتديت ثياباً ثقيلة، وحملت كتاباً سميكاً، لأبدأ رحلة الليل: - انهض يا وردان.. يجب أن تنهض قبل أن أغضب، وتعرف معنى غضبي!

انتظرت. طافت في خاطري رحلة اليوم. الثلج يملأ الدنيا، بياض زاه في كل مكان، كما لو أن الانسان يسير في حلم. ريح قارصة، كأنها قرصات يد حبيبة. لكن الطيور كانت حزينة. قلت: - على الانسان اللعنة.. أين كان هؤلاء الصيادون ولماذا تجمعوا اليوم؟

قلت لنفسي بقرق: إنهم لا يتورعون عن شيء.. يطلقون.. يطلقون حتى على الغراب الحذر، الذي يحول طريقه إذا رأى شبحاً. حتى الغراب اليوم كان عاجزاً وسقط. سمعت واحداً منهم يقول وهو يلوح بالغراب ويرميه في المستنقع:

- اذهب إلى الشيطان، يا غراب البين!
سألت نفسي: لماذا قتله إذن؟ وفكرت: الحياة حفلة قتل لا تنتهي.
الكبير يقتل الصغير. القوي يقتل الضعيف. الجسور يقتل الجبان.
شعرت برعشة برد تسري في عظامي. ألقيت الكتاب على وردان.
نهض فزعا. صرخت وأنا أشير إلى المكان الآخر:
- لقد أصبحت عذاباً بالنسبة لي!

وفكرت : العذابات الأخرى : الملكة التائهة ، الهزيمة .. الجسر .
قلت لنفسي بحزن : ليست تائهة ، ربما رحلت للأماكن الدافئة .. انها
هناك ، وراء الجبال ، وربما قريبة من الجسر الذي بنيناه ، فالطبيعة هناك
تحافظ على توازن مذهل .. وإلى هناك تهاجر الطيور .

قلت أخاطب وردان الذي أراد أن يعاود النوم من جديد :

- انهض .. يا عكروت ، يكفي عذاب الاشياء الأخرى !

وفكرت : الملكة تعود . قد تسافر يوماً ، سنة ، لكنها ستعود .
والجسر ، هل نعبّر الجسر؟ هل ما زال رابضاً في مكانه؟ وإذا كان هناك
فن يغني له؟ من يمسه على جنباته في الظلمة ، ويقول له بفرح :
لا تغضب من الانتظار .. لا تغضب أبداً ، إذا لم يعبروا اليوم فسوف يعبرون
غداً .

قلت لنفسي : ربما فكوا الجسر .. ربما نقلوه . قال لي الأسطة
بغضب : أتذكر كل كلمة قالها الأسطة .. قال :

«- هذا الجسر لا يمكن أن يفك» .

وراهنتي على ذلك .

قلت له : «لا أعرف شيئاً عن الجسور ، لكنني أحبه» .

وذباب رمزي .. آه ما أفسى ان يحزن الانسان بتلك الطريقة !

امتدت يدي إلى الأذنين . أمسكت بهما بقسوة ، وقلت :

- يجب أن تهض . لا أحتمل تحدياً جديداً !

تمطى بغضب . نهض . انزلق ، فاسحاً لي مجالاً للجلوس ، حتى إذا
جلست ربيض تحت قدمي ، استعداداً للنوم من جديد .

قلت له :

- ماذا تقول لو قرأت عليك شعراً؟

إنَّ نظرات وردان ذكية، متوازنة، وبعض الأحيان تحمل احتجاجاً ملحوظاً. قلت لما رأيته ينظر إلي هكذا:
- لا تنضب.. الشعر والدين هما الهزيمة. قلت لك هذا من قبل، ويجب أن تصدق.

غرقت في الصمت.. فكرت بأشياء كثيرة. قلت لوردان من جديد:
- ليس أي شعر.. وليس أي دين!

لوى رقبته، وضع رأسه فوق بطنه. أعرف خطواته كلها. هذه بداية النوم. قلت أخاطب شيئاً ما، لكي يسمع وردان:
- ليس الشعر الذي يهزم البشر. البشر يهزمون الشعر عندما يتكونه وحده يحارب.. لو حاربوا مع الشعر لانتصروا!

أغمض وردان عينيه ونام. فكرت: الملكة في الأراضي الواطئة الآن. رحلت. الفخ الذي نصبه الرب، اجتازته في الليلة الأخيرة. عبرت دون أن يحس بها أحد. عبرت بخفة وهدوء. وهناك استقرت.. وغداً قبل أن تشرق الشمس، ستقف على قدميها.. آه ما أشد العذاب الذي يحل في عظام الانسان عندما يرى بطة تتمطى: ترفع نفسها تماماً في الماء. ترفرف بشكل عجائبي، تهتز كما لو أنها ترقص. تصلي. حتى إذا تعبت من تلك الحركات، انزلت كسمكة في الماء. آه ما أقسى انزلاقها، تنزلق كما لو أن أحداً يدهفها.

إنها هناك الآن.. وغداً عندما تطل الشمس، من ناحيتنا، نحو الجهة الأخرى، تخش في القصب، تستحم في ضوء الشمس، وإذا أرادت أن تسافر قليلاً، لن تعود إلينا، قد لا تعود أبداً تعرف أي بشر نحن!

الكتاب أكادس من الكلمات المخدرة. الكتب التي نقرأها تقودنا في طريق أن ننهم: الكذب.. الكذب.. الكذب. ولا شيء غير الكذب.

دست على فخذ وردان ، حتى أيقظته . رفع الي رأساً محتجاً . قلت :
- الهزيمة يا وردان تفرق في دماننا . نحب أن نهزم . نلتذ . نبحت
عنها في كل مكان ، دون تعب ، حتى نجدها !
وفكرت : يجب أن أترك وردان ينام كأبي حيوان آخر !

قلت له بحب :

- نم .. أكون جرداً لو سمحت لنفسي أن أوقفك مرة أخرى .
عدت للتفكير كما يعود النمل إلى بداية الطريق . قلت بمرارة :
- لماذا يهزم الانسان ؟ وما الذي يهزم ؟
وتصورت الجسر .. كان مزهوا كطفل يلبس بذلة العيد . قلت بيأس :
- أنت لا تهزم .. نحن الذين هزمناك .. ونحن الذين هزمننا !



البرد يتسرب إلى الدم كما تسرب إليه الهزيمة . نفضت نفسي جيداً .
رفعت ساقى على المقعد . فتحت الكتاب ، دون اهتمام . قرأت :
« وقد كافح هؤلاء البسطاء والصادقون ضد مخلفات بقايا العبادات
القبلية المحلية ، ودمروا الاضرحة ، وحرموا السحر والعرافة ، وفضلاً عن
ذلك كان وعظهم يرمي إلى مكافحة الكذب والدروشة وتلك الأشكال من
العبادات الدينية التي كان يمارسها الأتراك ، والتي نشأت عبر القرون ودعوا
إلى الكفاح ضد السلطان العثماني .. الخليفة الكاذب والباشوات » .
قلت بتحدٍ .

- يجب أن يكف زكي نداوي عن التفكير والقراءة .. وحتى الصيد
يجب أن يكف عنه . زكي نداوي أقرب الناس إلى تقمص روح الهزيمة .
لأنه لا يستطيع ان يحاربها ، لا يستطيع أن يتخلص منها . وحتى عندما
أراد لم يستطع أن يفعل شيئاً . لم يستطع نسف الجسر .. والملكة هناك عبر

التلال تسبح.. أما وردان الذي ينام الآن، فهو الشقي الذي يتلقى الإهانات!

أغلقت الكتاب ورميته. انزلت كسمكة جريحة إلى جانب وردان على الأرض. ربت على جسده، أرتعش قليلاً وغير رقبته.. وتابع النوم. قلت له بحنان:

- وردان أنت أفضل الف مرة من بشر كثيرين.

وبسرعة أضفت، لكي لا أخون وردان كثيراً:

- انت يا وردان أفضل الف مرة من زكي نداوي. ومن يكون زكي؟ ندبة صغيرة مطعونة مهترئة. لا.. أسمع يا زكي أنت أقرب ما يكون إلى حجارة الارصفة!



استمر الثلج يتساقط لثلاثة أيام. قلت وأنا أطل من شبك الغرفة الكئيبة:

- اقسم بالأشجار والطيور وبالطبيعة كلها، من أدنى المخلوقات حتى السبع، ملك الغاب، اني لن أطلق رصاصة حتى يذوب الثلج. حتى تتطهر الدنيا!

وامتدت موجة البرد القارصة. أما الشمس، عندما تظهر، فكانت أشبه بكرة زجاجية لها آلاف الاضلاع والزوايا، كانت موجودة بوهجها، بأشعتها، لكن خيلاً باهتاً عندما تريد أن تمنح الدفء! وهبت في هذه الفترة رياح: كانت حادة، عاتية، مسنونة، صقيع رصاصي يشبه الأنصال.

في الأيام التالية ذاب الثلج في المدينة. ذاب تحت أرجل المارة، ومن رشقات عجلات السيارات، فتحول إلى وحل بليد. أما الأسطحة،

فقد بدت في ضوء الشمس أشبه بغرايل هالكة : فجوات كبيرة ، وغير منتظمة . ثم المزاريب التي لا تنقطع !

كنت أرقب السماء بسأم . وكنت أغزل الأفكار في رأسي مثل كرات الثلج : كبيرة ، متداخلة ، وبعض الأحيان مجنونة .. وأشتم ، ويستبد بي الحزن ، وأكاد أبكي وحدي في الظلمة .

قلت لنفسني ذات يوم : يجب أن أفعل شيئاً .

وتذكرت الملكة . سألت نفسي : أما تزال مهاجرة ، ألم تعد؟
وتصورت النهر والمدى بين المستنقعات . ثم تصورت الجسر الصغير المنهار الجنب ، والمياه الخضراء ، وبقايا الثلج . قلت :

- الثلج يذوب في المدن . أما هناك فانه يتسرب إلى الأرض بهدوء .. الأرض كالكلاب كثيرة الصبر!
وفكرت أن أخرج دون بندقية .

قلت لوردان :

- رأيت في بعض الأفلام رجالاً متوحدين ، غربي الأطوار ، يخرجون مع كلابهم في نزعات .. ماذا لو صنعنا مثلهم ؟
كان وردان أقرب إلى الانشغال . التفت أقرأ السماء ، ملامح النزهة . قلت بسخرية :

- الطبيعة أم الاشياء : الانسان والحيوان والنبات . ونزهة في الطبيعة تمنح الانسان لذة من نوع خاص !

كدت أخرج دون بندقية . تراءت لي صورة الشيخ . قلت لنفسني : لو رأي أسير دون بندقية فسوف يسخر مني . سيقول : «هل تعبك؟ هل كرهتها؟ احملها يا ولدي ، حتى لو لم تستعملها!» .
وقررت أخذها . وضعتها على كتفي .. وخرجت .

لكرت وردان ، بعد أن وضعت حزاماً في رقبته ، لأول مرة . وبدأنا
الرحلة .



الفصل الثالث عشر

عين الصياد أقرب إلى الحول . ترى الأشياء ولا تراها . والأشياء التي يريدها الصياد غامضة بلهاء .

قلت لنفسي : رغبة الانسان لا تملك لا تحدها أية نوازع .
بصقت وتابعت .

حاول وردان أن يركض ، لكن الحزام في يدي جعله ذليلاً تماماً .
سار بجاني بهدوء أخاذ .

قلت ونحن ننعطف في المر الطويل نحو المستقعات :

- أنت ترى البندقية يا وردان . انها على كتفي كالعصا . لن أستعملها ، لكن .. ربما دعت إليها الحاجة .

كانت بقايا الثلج ، في الزوايا والخنادق الصغيرة ، تتكسر تحت أقدامنا . الثلج في هذه المرحلة يبدو بديئاً . كان رقيقاً مفرغاً ، كأنه القشرة الهرمة . قلت لوردان الذي أوقفني رغباً عني ليبول :

- لا تعلم الطريق .. عليك أن تبول مرة واحدة ، صحيح انه طريق الجبلجة ، لكن المسيح مات !

وتذكرت الأيدي الرخوة ، وهي تشد وتقول : قام .. حقاً قام !
بصقت على كومة من الثلج . كانت الكومة في حفرة انتزعت منها

حديثاً شجرة مشمش مينة. كانت الشجرة ترتمي على كتفها بحزن ،
وبقاياها في الحفرة ، مغطاة في الثلج .

قلت لوردان بهدوء قاتل :

- كان الأفضل لو سرنا في طريق آخر. هذا الطريق .. يا وردان

يذكرني بالهزيمة .

طوال ساعة لم نر أحداً. البرد يجتاح المسافات ليصلنا. وردان يهتز
بتلك الطريقة الاستفزازية ، ويحاول أن يفلت مني . قلت له عندما اصطفقت
جلده :

- لن أتركك يا وردان. تأكد تماماً من هذا الشيء. ولكي

لا تغضب أقول لك : الصياد الآن يستطيع .. لذا حاول أن تشغل نفسك
بشيء ما !

طارت الشحارير. طارت بصخب. أجفل وردان ومرت سمات.
كانت إحداهن قرية لدرجة ندمت اني لم أطلق عليها. أما الملكة فقد
تجنبت الاقتراب من الاماكن التي أتوقع وجودها فيها. قلت لوردان لما
عبرنا المستنقع باتجاه الجسر :

- لن نصل إلى الضفة الثانية. ما زلنا في طور الهزيمة. أما إذا أردنا
الوصول إلى هناك فيجب أن تتغير تماماً. أسمع ما أقول لك أيها الوحش
الأشهب !

عند المساء التقينا .

في لحظة مخيفة ، كنت خلالها شارداً لدرجة الألم ، رأيت الشيخ .
كان يجلس في حفرة صغيرة على الضفة الثانية . كان ينتظر. لما رأيته شعر
بالخجل . حاول أن يتحرك ، لكن حركته الثقيلة ، المحرجة ، سمته في
مكانه ، قال لي بارتباك :

- أنت هنا منذ وقت طويل ؟

- لا.. جئت قبل قليل!

كذبت عليه. ألقيت هذه الكلمات لتعبر النهر إلى الضفة الثانية.

قال كأنه يخاطب نفسه:

- لم أسمع طلاقات.. قبل أيام لم تكن تمر دقيقة إلا وتسمع طلاقة أو أكثر!

- جئت قبل أسبوع. كان الصيادون كثيرين لدرجة مزعجة. ويبدو أن هؤلاء الصيادين لا يحترمون شيئاً. منذ أن وصلوا، وحتى بعد الغروب، والطلقات لا تتوقف، لا تنتهي، وعلى كل شيء!

قال وهو يهز رأسه بأسف:

- الناس أغرب من الطير، وكل واحد أغرب من الآخر!
وساد بيننا الصمت. لم أكن أملك ما أقوله، وكأنه بكلماته التي قالها ختم فصلاً طويلاً وحكيماً.

قلت أخاطب وردان، لكي أتيح لكليتنا أن يفعل شيئاً.

- وأنت يا وردان.. ألا ترى صيداً؟

قال الشيخ بعصبية:

- السمن كثير.. أكثر من الأيام العادية!

وبنفس اللهجة الباردة، المستفزة، التي أستعملتها أول مرة، سألته:

- وغير السمن؟

- لا شيء غير السمن!

وفجأة سألته:

- وأنت.. ماذا تنتظر؟

- انتظرها!

كانت كلمة واضحة حادة مضيئة. انه يعنيا ولا يعنى غيرها.
سيغضب إذا سأله عنها أكثر من ذلك. يجب أن اترك له لذة علكها ثم
إلقائها الي. هز رأسه قليلاً، ثم قال :

- كل مساء.. بعد الغروب، بعد أن تعتم العين، تمر من هنا!
وأشار بيده. انه ينتظرها إذن! ستمر.. ورغم انه بقي لغروب
الشمس فترة ليست قصيرة، فهو ينزرع في الحفرة كالوتد.. لا يريد أن
يغادرها. لا يعرف كيف يغادرها. حتى عندما رأي ان يغادرها،
لكن قدميه جرتاه إلى اسفل.

قال وهو ينظر إلى الفضاء :

- أمس رأيتها للمرة الثالثة. كنت بعيداً. تصورتها في المرة الأولى
بطة. أما في المرة الثانية فكنت قد علقت البندقية على كتفي، بعد أن
غابت الشمس وأظلمت العين وفجأة رأيتها تمر.. أمس كانت المرة الثالثة!

- وهل تمر في نفس المكان؟

- ثلاث مرات رأيتها في نفس المكان، تقريباً!

- وأمس رأيتها آخر مرة؟

وهز رأسه دون أن يجيب. كانت نظراته تتسلق الفضاء والأشجار. لم
يكن يريد لعينيه ان تسقطا على الأرض، لكي لا تفوته لذة النظرة الأولى.
قلت بتحدٍ:

- وما أدراك انها دجاجة أرض؟

هز رأسه ونظر بسرعة والابتسامة لا تفارق شفثيه، حتى إذا لف رأسه
في جولة طويلة واسعة، انزلقت عيناه عليّ. لما رأي أنظر اليه هكذا، قال
بهدهوء:

- انها هي.. أعرفها، أعرف طريقتها في الطيران.

وتغير صوته وتابع :

- في المرة الأولى تصورتها بطة ، لانها كانت بعيدة . أما في المرتين
الاخيرتين .. فتأكدت !

وبعد لحظات صمت طويلة قاسية ، قال كأنه يعتذر :

- وأنت .. ألا تريد أن تصطاد شيئاً اليوم؟

وفجأة اكتشفت بلادة وقفتي . لم يكن الشيخ يريد أن يقول : ابتعد ،
اغرب عن وجهي ، ولكن الصياد يحس . يعرف كم من الألم تسببها وقفة
بلهاء مجانية ، في وقت يحتاج لكل ذرة من الفضاء ، لكي يستخرج
الطير.. الذي يريد .

قلت وأنا أتحرك :

- كان بودي لو أصيد بطة .. لكن الوقت الآن متأخر .. سأذهب
للسمنات !

لما ابتعدت .. تحركت يدي في الهواء .. كانت تحية على طريقته .
رفع يده اليسرى ، على غير عادته ، ولوح بها .
وأنا أقترب من الشارع الرئيسي ، بعيداً عن المستنقعات ، وكان
الغروب قد امتد مثل غطاء هش فوق الأشياء كلها ، سمعت طلقة .

قلت بصوت واثق :

- طلقته .. أعرفها .. انها طلقته ، والشيخ لا يخطئ !



الفصل الرابع عشر

.. استمرت الشمس في شباط تنزلق عن الأشياء بسرعة ، دون أن تخلف ذرة من الدفء . الغيوم تتراكم كأنها قطع مهتاج . تتجمع ثم تتمزق . تحجب الشمس ثم توسع لها يديها الثقيلتين فرجة صغيرة لتطل منها ، وتغلقها مرة أخرى .

قلت للآحد ، وكنت ألوي عوداً يابساً لأكسره :
- شباط يشبه حياتنا تماماً .

تفلت على الأرض بانتقام . ضربت وردان على مؤخرته بالعود اليباس . ركض أمامي مذعوراً ، ابتعد بضعة أمتار والتفت . كانت عيناه غاضبتين ، أما وجهه فأقرب ما يكون لوجه كلب لا أعرفه . قلت له بتحدٍ :

- استعد لألف ضربة ياكلها منحطاً !

عدوت وراءه مهتاجاً . لم يصدق أول الأمر ، لكن لما رأى تصميماً أحرق في وجهي ركض ، وأخذ يعوي بتلك الطريقة الذميمة . قلت وأنا أهر العود وأهدده :

- سأضع العود في أنفك ، سأضعه في مؤخرتك ، ولن تمنعني أية قوة من تنفيذ ما أريد !

لما أصبح وردان بعيداً، لدرجة لم أعد أرى عينيه الغاضبتين، قلت
لنفسي بمكر، وبصوت قاسٍ:

- سأغير الخطة الآن. أرمي العود، وأستريح قليلاً. لا بد أن
يعود. وإذا تردد قليلاً سأغريه، أناديه بكلمات الدلال. أشجعه، حتى إذا
اقترب أمسكت به، ووجهت له إهانات مباشرة!

تقدمت بضع خطوات. تحرك من مكانه بحذر، ناديته بصوت
عالٍ:

- تعال.. لم يبق شيء بيننا!

لا أعرف أية فكرة مجنونة دفعتمني لأن أففز عبر القناة التي كنت أسير
بمحاذاتها. ماكدت أففز حتى شعرت بعجز كلي. رأيت سقطتي قبل أن
تقع. ارتمت البندقية لا شعورياً من يدي، أما العود، فقد رميته بغضب،
وتحررت يداي، وهذا جعلني أتلقي جزءاً من الصدمة دون أذى. ظلت
مرمياً على الأرض في نفس المكان. كنت غاضباً ونادماً. كنت حاقداً
ومستسلماً. قلت بصوت عالٍ:

- لو كانت الأرض صخرية، لو كانت الصخور مستنة، لو كانت
الأسنان حادة، لأنغرزت في قلبي ومِت فوراً!

كان صوتي يشبه صوت ضفدعة محتضرة.. أضفت ووجهي في
التراب:

- خطية وردان!

وفكرت: إذا كان الانتقام ما أفكر فيه، ما أريده، فيجب أن يكون
انتقاماً حقيقياً، وتجاه من يستحقه!

صمت طويل تخلله استنشاق رائحة الأرض بنهم، سألت

نفسي : لماذا أضرب وردان؟ وهذه الفكرة التي هبت في رأسي كما تهب رياح شباط الآن ، لماذا تحولت فجأة نحو هذا المخلوق البائس؟
لا أعرف لماذا عنت لي فكرة الجنون. قلت والضحكة تملأ حلقي وتختلط مع الطين:

- زكي نداوي بدأ رحلة الجنون!

نهضت. تلفت حولي. تصورت أحداً رأي. كان الفراغ كثيفاً مشبعاً ببرودة راسخة، وعلى البعد كان وردان يتجه نحوي بخطوات حذرة متسامحة.

قلت بصوت مشبع بالثقة:

- أنت يا وردان أفضل مني الف مرة!

ودون هياج، وبصوت حكيم أضفت:

- الحيوانات أحسن آلاف المرات من البشر.. لانها مفيدة، ولانها تستطيع ان تدافع عن نفسها!

غيرت مكاني. لم أبتعد كثيراً. استندت إلى ساق شجرة حور صغيرة. وضعت البندقية على الأرض وأشعلت سيجارة. قلت في نفسي: لا يمكن ان تمر أية إساءة دون انتقام حقيقي..

وبأسى أضفت:

- والآن أذفع ثمن إساءتي إلى وردان!

اقترب وردان كثيراً، لكن المسافة بيننا ظلت أكثر من عشرين ذراعاً. قلت ورأسي يهتز نتيجة الاكتشاف:

- أنت تحفظ بمسافة أمن.. حسب التعابير العسكرية!

لم يكن وردان واثقاً. ولم أكن مقررأً فعل أي شيء. كانت حالة من

الرخاوة، وأقرب ما تكون إلى الشلل تسيطر عليّ. نفثت الدخان بسأم.
ودارت في رأسي أفكار كثيرة ومضطربة. قلت بصوت بائس:

- النهاية!

وفكرت: النهاية؟ نهاية ماذا؟ لماذا؟

وتسلقت ذاكرتي زلازل صغيرة.

تلمست جنبي، أحسست بالألم للذيذاً. أول مرة، منذ فترة طويلة،
أحس أن الألم يمكن أن يكون للذيذاً. قلت بصوت هادئ:

- لو أن الانسان يتطهر بالألم لنجا من خطايا كثيرة. على الانسان
أن يفعل أشياء كثيرة لكي يتخلص من الفضلات التي يكتنز بها جسده
وروحه!

كدت أقول أشياء أخرى. تجرأت لأن أبدأ التفكير، بعمق، في
قضايا فلسفية، لكن وردان رفع ساقه وبال.

صرخت بفرح:

- لو أن دمي ينفر من عروقي بهذه الطريقة!

وتصورت نفسي ممدداً على الأرض، وجهي نحو السماء، والدماء
تترف من يدي على شكل نافورة قوية، لا أشعر بأية آلام تلك اللحظة.
حالة من الخدر اللذيذ، من التعب الممزوج بالتلاشي، ثم فجأة، تبدأ
النافورة تنقلص، وعيناها اللتان كانتا تطلان على السماء الواسعة ترتخيان،
ثم تنطفئان.

فكرت: وجود الألم أو عدم وجوده يتوقف على حالة الوعي.

قلت بصوت عال أحاول إقناع نفسي:

- والطريقة التي تنفجر بها الدماء. هل هي نتيجة طلقة، أو سكين

حادة. يجب أن تتحدد الطريقة لكي يقدر الانسان فيما إذا كانت تخلف
آلاما.. أم لا!

هبّت رياح قوية. صرخت :

- يجب .. نعم يجب !

وصمت ببلاهة. أطفأت السيجارة ، دستها تحت قدمي ثم رميتها
بعيداً . وفكرت : « الهذيان » هذا هو الوصف الحقيقي للحالة !

ناديت على وردان بتحبيب :

- تعال .. تعال بقربي أيها الخل الوفي .

اقترب . كان اقترابه حذراً . لا أعرف لماذا تلفت ، وكأني أبحث عن
شيء . قلت أخاطبه :

- لن تتعرض للأذى بعد اليوم يا وردان . أما العود الذي هددتك
به ، فقد انقذف في الهواء إلى غير رجعة .. وحتى لو وجدته فسوف أضعه
في عيني وأفأهما !

ظلت المسافة بيننا بضعة امتار . نهضت فجأة ، ودون سابق تصميم .
ففزع ، تراجع إلى الوراء بشكل فوضوي مستجير . قلت وأنا أرفس الهواء :

- لا تخف ، لن أنتقم منك ، سأنتقم من غيرك .. من الذين قادونا
إلى الهزيمة .. لا .. يجب أن أبدأ بزكي نداوي .. ويجب أن تشاركني في
هذا الانتقام !

وفكرت : لو رأي أحد الآن .. أتكلم هكذا .. أتصرف هكذا ، هل
يتصور اني مجرد مجنون؟

صرخت بتحد :

- زكي نداوي أعقل من الإله !

فكرت : ما أشكو منه حدة الوعي بالأشياء . أتصور ان كل ما أراه شفافاً ، زجاجياً ، وأقرب ما يكون إلى صفات الماء !

ارتفع صوتي بهدير كثيب :

- زكي نداوي جهاز أشعة !

بصقت . تقدمت نحو وردان . تراجع إلى الورا وهو يعطيني وجهه أول الأمر ، ثم استدار قليلاً ، وكأنه لمح شراً في عيني . قلت :

- وردان .. اعطيك الامان .. ابق في مكانك !

كان يتحرك ببطء وحذر .. وكان مستسلماً وحنوناً . قلت :

- البول الذي اطلقته قبل قليل يعادل جميع الافكار التي تطوف في

رأسي !

فكرت : هذا الحوار الأصم ألا ينتهي ؟ ماذا أريد من وردان ؟ من

العالم ؟

مرت في رأسي موجات متوالية مضطربة من الأفكار والذكريات .

قلت بتسليم ذليل :

- الهزيمة .. العلة التي تربض في دمي !

وتمطت كلمة الهزيمة في حلقي ، في ذاكرتي . قلت بتحد :

- وأنت ، أيها الفارس ، تقاوم الآن الهزيمة !

ورفرفت الملكة في ذاكرتي : صوت الماء ، صوت الأجنحة ، صوت

الريح ، كان الفرع ينفر من دمي ، من عروقي ، كالنار .

قلت بسخرية :

- إذا كانت البطة أفرعتني هكذا فكيف لو واجهت نسرًا ؟ جبلاً من

جليد ؟

أحسست بحزن يغممني ، كأنه ثوب من الحديد . قلت وهزات رأسي
تزايد برتابة مجنونة :

- ماذا لو واجهت جسراً مرة أخرى ؟ مرة أخرى .. مرة أخرى ..
أخرى .

قرفت . ناديت وردان .. فاقترب . قلت كأني أخاطب قطة :
- تعال يا وردان .. سأنظم قصيدة ، وسأغنيها لك .. أنت يا وردان
أغنية .

إقعي مقابلي . قلت بفرح :

- سنبدأ حواراً ذكياً . كن جسوراً وأجب .

هبّت عاصفة سوداء : رياح قاسية انفجرت في كل مكان ، أما الكرة
التي كانت تتزلق فوق الأشياء ، فقد توارت تماماً . قلت بغضب افزع
وردان وجعله يركض من جديد :

- يا شمسا رديئة ، أنت بعوضة لا تظهرين إلا في الظلمة !

عوى وردان . لم يعو هذه المرة علي ، ربما خوفاً من الطبيعة
أو احتجاجاً عليها . قلت أشجعه :

- نشتم الطبيعة معاً يا وردان ، ونشتم هذا الشهر الخثي ، لا تعرفه
أبداً بين الشهور ، له علاقة بالصيف والشتاء ، له علاقة بتموز وكانون .
وتغيرت طريقة حديثي إليه ، أصبحت حكيمة . قلت :

- ويجب أن تعرف شيئاً آخر عن هذا الشهر .. انه شهر الققط !

ولا أعرف لماذا تذكرت شهر الصيف ذلك .. قلت :

- لا تعضب كثيراً .. فأنت أحسن من شهور أخرى .

وفكرت : الشهور هي الشهور ، وهي أكثر ثباتاً من الانسان وأقوى .

انها الطبيعة. حتى شباط الذي أشتمه يمثل الطبيعة الحقيقية. ماذا أعني؟
أعني: التناقض، التزاوج، التداخل، الصراع، ثم الإنبثاق!
أصابني ألم مفاجئ في ظهري، في نهاية السلسلة الفقرية، تحركت
بصعوبة، أحسست بالألم أكثر.

قلت بثقة وزهو:

- لم يبق امام زكي نداوي إلا ان يلبس عمامة ويخطب الناس.
أصبحت حكيماً، ويجب أن أفقأ عيني لأصبح حكيماً أعور.. وإذا زاد
الألم أكثر أصبح أيضاً مقعداً!

بصقت. جمعت في حلقي كتلة من البلغم، وبصقت. عوى وردان.
كان عواؤه طويلاً موصولاً، يذكر بالموت. كما تقول جدتي. قلت
بصخب:

- ليأت الموت. أحمله على كتفك يا وردان.. آه لو أصبحت نسرأ
يحمل الموت من الاماكن البعيدة، فنحن بحاجة إلى كمية ضخمة جداً
من الموت!

وتصورت الموت: حالة من الراحة الكلية. سكوتا أبدأ يشبه
الحجارة وبقايا الأصداف وجذوع الأشجار. قلت بثقة:
- نحن لا نستحق الموت.. الموت أكبر منا ولا يمكن ان نصله
بسهولة!

وفكرت: استحقاق الموت معناه حالة من الحركة الدائمة، حتى
حالة النهاية تعبير عن حركة. نحن حالة من الاهتراء، الانسراب إلى
الداخل دون حركة، دون فعل، تماماً مثلما تغور المياه في باطن الأرض،
انها لا تفعل شيئاً، انها تنسحب إلى الداخل رغماً عنها. لا تقاوم،
لا تتحجج، لا تنتظر!

انهمر المطر.. المطر والتلج. حالة التداخل العجيب، تزاوج فذ،

لكنه قصير. نهضت بصعوبة. التقطت البندقية، وهولت لأنوارى من المطر في مكان ما.

قلت وأنا اصب مثل فيل مريض :

- فتش عن مزاب يا زكي. أتحتمي من المطر؟ ما تريده هو المطر.. المطر والرياح والشمس. يجب أن تغتسل بأمطار الشتاء، لعلها تطهر روحك. أما الرياح والشمس، فقد تستطيع ان تصفع التنانة الملتصقة بك وتجففها.. لماذا تهرب إذن يا خلدأ أعمى؟

كان وردان فرحاً. كان يتراكمز حولي، لكن ضمن مسافة الأمن، قلت له وقد عداني فرحه :

- نحن أكثر من أخوة يا وردان!

السماء بألوانها المتداخلة المتدرجة تشبه حالة من الحزن الغامض. أما الرياح فكانت كالخيول تعربد في كل مكان، حتى لتبدو في لحظات وكأنها تمتطي الأشجار والأرض والمستنقعات وتبقى فوقها!

قلت لوردان، وقد تألقت الصورة فأصبحت شريطاً لامعاً:

- وردان.. نحن خيول منقرضة!

أعجب الأشياء ان تحصل في غير اوقاتها، وفي غير أماكنها. ما كدت أمشي مائة خطوة، باتجاه شجرة الجوز الكبيرة، التي تكون في بداية المطر مظلة وتصبح في نهايته مزاباً.. ما كدت اقترّب منها حتى رأيت الشيخ.

كدت أتوقف. فكرت بالتراجع، لكن وهو يقف شامخاً إلى جانب ساقها المتين الراسخ يدخن، شدني كما تشد الأحزمة الكلاب. تمهلت

قليلاً، تاركاً للمطر أن يتسرب إلي ويجلدني. وتاركاً للريح أن تصفع وجهي، بعد أن بدأت أقتنع بهذه الفلسفة.

قلت لنفسي: لا أستحق صحبة هذا الشيخ. كما لا استحق الشمس والهواء النقي وأي شيء في هذه الحياة. فكرت بالكلمات التي سأقولها، بالأفكار المتوهجة التي ستندلق على لساني. قلت لنفسي: لو قطع لساني! صرخت على وردان، الذي كان يمشي قريباً مني:

- لا تتبعد كثيراً، لكي لا أضطر إلى اللحاق بك.. ثم جرك كحمار أعرج!

ربما سمعني.. وإلاً لماذا يضحك هكذا؟ لماذا يمتلئ وجهه بذلك التعبير الصريح؟ قلت في نفسي: ان صراحة بعض الوجوه مستنفرة قاهرة، ولا يملك الانسان مقاومتها. كانت عيناه تطلان علي كأنهما يدان تجراني أو تدفعايني. قلت وما تزال بيننا خطوات كثيرة:

- شباط أقسى الشهور وأخبثها!

وجاء صوته الواثق المثقل بالحقيقة:

- كل الشهور خير وبركة.

وابتسم.. ثم اضاف بلهجة مختلفة:

- عوافي!

- الله يعافيك!

لما اقتربت، شددت على يده. كانت جافة صلبة. وتمنح الشعور بالامن. قلت وأنا أبعد عيني لكي لا تلتقيا بعيني:

- ألا ترى.. كل ساعة تختلف عن الأخرى. ساعة شمس وساعة

أمطار!

- لن يطول المطر!

- هل أنت متأكد؟

- اظن !

- وهذه الرياح التي تسوق الغيوم من أقصى الدنيا؟

- وإلى أقصى الدنيا تسوقها.. لن تبقى هنا فترة طويلة !

- الله اعلم !

وضحك . كاد يقول انه يعلم أكثر من الله . قالها وجهه وقالها عيناه . لكنه جر لسانه إلى الخلف ولم يقل شيئاً . الابتسامة أفسى من الكلمات . السنوات الطويلة التي تجر نفسها بصعوبة وراءه ، علمته . الحياة هي المعلم . قلت بفجاجة :

- لا أحب شباط !

وأضفت بسرعة لثلاث أترك له وقتاً للتعليق :

- الانسان .. في شباط ، لا يعرف كيف يتصرف ، أين يذهب ..

متى !

رد بثقة جامحة :

- أيام شباط أحسن أيام الصيد . والصيد دائماً ينتظر شباط !

عيناه تحملان الصراحة البسيطة كلها . لم تتغيراً أبداً . رددت وراءه بعض الكلمات التي قالها ، وكأنها فعلت في نفسي السحر :

- شباط أحسن شهور الصيد .. شباط ينتظره الصيادون .. شباط ..

هز رأسه ، وتلك الابتسامة المؤلمة المتعبة تسبق كلماته ، حتى إذا تأكد

ان نظراته استقرت في دمي ، قال :

- كل شيء تجده في شباط .. طيور الصيف والشتاء !

- طيور الصيف والشتاء؟

- كما قلت ، لأن شباط يتقلب كثيراً ، ويسوق أمامه كل ما يصادفه ، والطيور الصغيرة ، غير المجربة ، كثيراً ما تخطيء . فاذا جاءت موجة شمس ، أيام حارة ، اندفعت . لا تعرف ان وراء شمس شباط أقسى أيام البرد .

هزرت كتفي دلالة عدم المعرفة والاستنكار . قال وهو يقدم إلي
سيجارة :

- وأحسن أوقات الصيد ..

توقف فجأة ، لم يكن يريد ان يضيف كلمة واحدة . استدار . تطلع إلى الأفق أكثر من مرة . مد يده ليمسح قطرات المطر التي استقرت على وجهه . فلما وجدني أتطلع إليه باستطلاع ، قال بنبرة جديدة ، وهو يضحك :

- الله يلعن الصيد وأيامه !

وتغير صوته مرة أخرى وأضاف :

- يلهي الانسان عن ربه ، عن نفسه !

لم أتركه يهرب . أحسست انه يحاول اخفاء سر . قلت بتحد :

- قلت لي إنَّ شباط أحسن وقت للصيد ..

- نعم .. نعم ..

- برأيي لا يختلف عن كانون ، عن آذار .

بانت ابتسامة حزينة على وجهه ، قال :

- يجوز .. كل شيء ممكن .

- لا .. أريدك ان تقول لي رأيك بصراحة !

تطلع الي طويلا . كانت ملامحه تشدد ، تقسو ، وفجأة قال :

- ولع سيجارتك !
لم أكن قد فطنت ان السيجارة انطفأت . كنت أجر الانفاس متوهماً
اشتعالها .

قرفص ، ونادى على وردان . وجدت نفسي انزلق وأقرفص . أحتك
كتفانا . كانت شجرة الجوز قد تشبعت بالمطر ، وبدأت رشقات صغيرة
تصفع وجوهنا بعد هبات الريح .

قال وهو يصدمني بكتفه متعمداً :

- شباط شهر البركة .

- شهر البركة ؟

- اسمع .. يا ولدي ..



الفصل الخامس عشر

- الانسان.. ما هو الانسان؟ هو العادة، والعادة هي التي تخلق كل شيء.. تجعل واحداً صياداً وواحداً يكره الصيد!
بدا في وجهه التردد، كأنه لا يريد أن يتابع.
قلت أحرصه:

- الصيد أكثر من عادة.. سوسة، مرض..
- إذا كنت تريد رأيي.. الصيد خراب في الدم، ومثلما يكون بعض الناس مصابين بالسكر، ولا يمكن أن يتخلصوا منه، هكذا يكون الصيد!

ربت على ظهر وردان الذي جلس بيننا، إلى الأمام قليلاً، مبقياً قائمته الأماميتين مشرعتين كأنه يستعد لشيء ما، وأضاف بنبرة جديدة تماماً:

- لي صديق مصاب، الله يعافيك، بالسكر، أراه لا يفعل شيئاً إلا أن يسأل الناس عن الأدوية الجديدة، فإذا تعب قام يقيس نسبة السكر بالبول، وكأنه يفعل شيئاً عادياً، كأنه يتنفس أو يتشاءب.
وصمت فترة طويلة، حتى إذا أحس بنظراتي، قال دون أن يلتفت:
- والصيد نفس الشيء!

استخرج من علبة سيجارة ، وعيناه تغزلان الأفق ، كأنه يبحث عن شيء ، لكن أفكاره كانت تسبق نظراته وتتراكض حواليه ، أحسست بذلك من التغيرات الحادة ، من التوتر الذي ينشد حول زاويتي الفم ، من أصابعه التي تداعب السيجارة بعصبية .

في لحظة لمعت في ذاكرته الفكرة التي يبحث عنها . قال كأنه يتابع حديثاً موصولاً :

- عندما يكون الانسان في الصيد ، يكون في الصيد ، وعندما لا يكون ، لا يفكر إلا بالصيد .. أنا مثلاً .. حين أطل من الشباك ، قبل الفجر أتساءل : هل هذا يوم صيد؟ وحين أتوضأ أشم رائحة الجو لأتأكد ، ولما أصلي .. وخلال كل ساعات النهار ، ليس لي إلا أن أفكر في الصيد ! قلت بطريقة بلهاء :

- أنا ، يا عم أفكر بنفس الطريقة !

وابتسم وتطلع إلي بحزن .. اهتز رأسه ، قال :

- لا أريدك أن تقول لي .. أعرف .. أعرف .

وانتبه إلى السيجارة بين أصابعه . انتزع بسرعة سيجارة من علبة المعدنية ومدّها إلي باعتذار ، وقبل أن نشعل السجائر ، قال بأسى :

- أتعرف .. لو كان معنا شخص آخر لا يحب الصيد ، لضحك علينا ، وربما اعتبرنا مجانين !

ضحك بصوت مدو . لم أكن أتصور انه يمتلك مثل هذه الضحكة الصافية الرنانة . قلت :

- أصعب شيء أن يتحدث الانسان في أمور لا تهتم الآخرين ..

كدت أضيف ، لكن يده ارتفعت في الهواء بمودة ، وقال :

- وإذا تحدث يظنونه مجنوناً ، صغير العقل !

- كما قلت يا عم .. الصيد سوسة !
- أكثر من سوسة ، لكن أحسن من أشياء كثيرة في هذه الدنيا .
- ماذا تظن بالذي يلعب القمار؟ بالذي يشرب الخمر؟
- وتغير صوته تماماً . استدار نحوي قليلاً وتابع :
- أنا رجل تقي . أصلي أصوم . وأعبد ربي ، لكن ..
- تصورت انه سيجدف على الله ، أن ينكر وجوده ، فجأة أضاف :
- أتصور نفسي ، لو أن الله حرم الصيد لخالفته ، وكما قلت لك
- الصيد عادة .. مرض ..
- كل شيء عادة !
- وإذا رأيت واحداً يلعب القمار أو يشرب الخمر فلا يمكن أن
- تلومه هكذا !
- ولكن الصيد شيء آخر .
- نعم الصيد شيء آخر ، قلت لك ، أنا صياد منذ اثنتين وخمسين
- سنة .. عمر ، وسوف أموت والبندقية في يدي . لا أستطيع أن أترك .. إلا
- إذا ..
- وابتسم بحزن ، كأنه يشعرني انه لن يتخلى إلا إذا أصبح عاجزاً ، أو
- إذا مات !
- قلت لأخرجه من هذا الجو :
- الصيد يطيل العمر .. انه رياضة مهمة !
- الانسان عندما يبدأ قد يفكر بالنتائج ، لكن الأمور ليست هكذا
- بالنسبة لواحد مثلي !
- أمسك بكتفي . هزني قليلاً ، وقال بصيغة لا تحتمل الرفض :

- الأفضل أن نترك هذا المكان!

ونهبضنا. تدرجرت الشمس بين فرجات الغيوم. كانت بائسة، لا تحمل دفئاً، وأقرب ما تكون إلى قمر متفجر. الرياح هدأت، ما عدا موجات صغيرة رعناء تنهض بين فترة وأخرى. أما الأشجار فكانت مغسولة وأقرب إلى القتام!

قال الشيخ ونظراته بعيدة تدرع المدى:

- أتذكر اني بدأت الصيد في شباط. لست متأكداً، لكنني لا أشك كثيراً. تعرف.. الطفل لا يمكن أن يتذكر. كل ما أتذكره اني كنت مع أبي. كانت الشمس قوية كمخرز، وبعد فترة قصيرة سقط الثلج.. هذا لا يحصل إلا في شباط. صدنا في ذلك اليوم صيداً كثيراً.

كادت تطفو على لساني كلمات بذينة، كأن أقول له: وهذا ما يحصل في آذار أيها الشيخ الخرف.. وربما في نيسان. لكن صمت. تابع الشيخ:

- تعلمت الصيد في أماكن قريبة. كان المرحوم والذي يخرج إلى الصيد كل يوم.. وأنا ربما أكرم والذي الآن عندما أكون وفيماً لعاداته! صمت لحظة، بدت طويلة بالأصوات الحافلة التي تتصاعد من أحدىتنا التي غرقت في الطين. قال:

- لا.. المسألة لا تتعلق بوالدي، صارت بالنسبة لي عادة لا أستطيع مقاومتها.

قلت لوردان بصخب، وقد تعمدت ذلك لأترك للشيخ فرصة التوازن والتفكير:

- وأنت يا وردان.. هل تكون وفيماً وترافقني حتى نهاية العمر القدر؟

لم تكن كلماتي مضحكة لهذه الدرجة. ضحك الشيخ، حتى اني شعرت بالخجل. استعدت الكلمات فلم أجدها مضحكة. قلت بتبسط أرعن:

- أحب الكلاب، وأحب ان يرافقني حتى النهاية!
قال بمودة:

- وهذه عادة أيضاً.

تركت الصمت ينغرز بيننا كأعمدة الاسمنت. ظلت صامتاً، ونقل الشيخ البندقية من كتف لكتف كأنه يتوازن. بعد أن توارت الرياح، وظلت أصوات الأحذية كموسيقى ثقيلة، تنحج كأنه يستعد للكلمات خطيرة:

- نعم عادة.. لكن ما هي العادة؟ العادة هي الأيام. الطريقة التي يتصرف بها الانسان.

اقتربنا من المستنقعات. توقفنا لحظات، وكأن التردد شق طريقه إلى قلوبنا. قلت لنفسي: أين نذهب؟

لاشعورياً برق في رأسي الجسر. قلت بمكر مؤلم:
- يمكن أن نجلس على الجسر ونتحدث.

ودون أن يجيب، قال برأسه موافقة كبيرة راضية.

وفكرت بالجسر اللعين، بالهزيمة. قلت لنفسي: الجسر مأساة وسيقى كذلك حتى أموت!

ضربت بقدمي الأرض. كانت ضربة قاسية وعابثة، حاولت خلالها أن أخلص الحذاء من كتل الطين، ولكني في الحقيقة كنت أحتج بطريقة ما!

قال الشيخ:

- في هذه المستنقعات بط كثير!

صرخت برعب:

- بط كثير؟!!

هز رأسه بتأكيد، وقال دون أن ينظر إلي:

- نعم.. لا تستغرب. المهم أن تعرف متى تصيده وكيف!

- جئت إلى هنا عشرات المرات. وأغلب الأحيان لا أجد شيئاً.

قال وهو يمسك كفتي بصداقة:

- ما زلت صغيراً.. يجب أن تتعلم الكثير!

كانت كلماته حادة كأنها سكاكين حمراء تنغرز في قلبي. ربما كان

يسخر مني، ربما كان يمتحنني. قلت:

- قبل خمسين سنة.. أليس كذلك؟

- لا.. اليوم.. وغداً. المهم أن تعرف كيف تصطادها!

- ولكني لم أر شيئاً!

لا شعورياً تلفت. أمسك بكفتي مرة أخرى، وقال:

- لو بحثت فلن تجدها الآن.. المهم أن تعرف متى تأتي!

قلت بنفاد صبر وتحذ:

- جئت هنا عند الفجر.. وأنت تراني كل يوم إلى متى أبقى.

قال الشيخ، بعد أن تنحنح وجلى صوته تماماً:

- أتذكر هذا المكان عندما كنت صغيراً، ورغم أن البط كان أكثر

من الآن، فقد تعودنا صيد البط في أماكن أخرى!

ضحكت بصخب، وكأني أرد عليه. نظر إلي بعينين رؤوفتين

وواثقتين، فلما أحسست أن نظراته استقرت في داخلي، قلت:

- كما قلت لك ، أنت تتحدث عن البط قبل خمسين سنة !
- قبل خمسين ، قبل أربعين ، وحتى الآن .
بكفه الخشنة مسح الحافة الاسمنتية ، وهو يلقي علي كلماته
الشامخة ، فكانت مثل الكرات تصفع وجهي ، لما انتهى جلس ، وقال
بطيبة خارقة :

- أجلس يا ولدي !

قلت لوردان ، وقد شعرت ان الحافة ضيقة ، وتهتز تحتي :

- وأنت يا وردان ، ألا تجلس ؟

جلست .. تشمم وردان قاعدة الجسر ، عند الحاملة المنهارة ،
صرخت عليه بألم :

- أجلس كصخرة مينة ، يا وردان .. كف عن هذا الدوران
الأعمى !

ضحك من الطريقة التي تحدثت بها إلى وردان ، قال وهو يتسم :

- تحدثت معه وكأنه يفهم ما تقول له .

صمت قليلاً ثم تابع بلهجة خجولة :

- الحيوانات تتعود ، تفهم . كل شيء بالتعلم . وإلا لماذا يعرف
اسمه ؟ وكيف يفهم ما يقوله الانسان ؟

أجبت بنوع من التفاخر الحاد :

- وردان يفهم كثيراً ، أغلب الأشياء التي أريدها منه يفعلها ، ثم
انه مطيع .

ربت على ظهره بحنان وقال :

- يجب أن تبقى صاحباً جيداً !

الشيخ ينسى ، ينسى بسرعة . لقد ابتدأنا عند الجوزة الكبيرة ، ونحن الآن على الجسر ، لكن الحرب السرية لا تتوقف ولا تمتد . لا يريد أن يكشف نفسه ، ولا أن يواصل الحديث . قلت وقد امتلأت مخيلتي بصورة الملكة :

- قلت لي : البط كثير! أين؟ متى؟
قال وصوته يكتسب عمقاً اضافياً ، وكأن شخصاً آخر في داخله يتكلم :

- إذا أردت البط يجب أن تأتي إلى هنا في الليل!
- في الليل؟

- نعم في الليل ، لكن في أية ليلة . ليالي القمر ، نعم في ليالي القمر ، ويمكن أن تجد البط ، وسوف تصطاد العدد الذي تريد .. أنت وحظك ، أنت ومهارتك .

- ليالي القمر؟

- نعم الليلة القمرية أحسن الأوقات لصيد البط .

- وأنت .. هل تأتي في ليالي القمر؟

هز كتفيه دلالة النفي ، وكأن الأمر لا يعنيه ، فلما رأى وجهي قلقاً منكراً ، قال :

- منذ عشرين سنة حرمت صيد البط .

- لماذا؟

- لأنها العادة!

وضحك بحزن . صمت . انتظرت ، اهتز رأسه بأسف وتابع :

- قبل ذلك الوقت كنت أذهب مع أبي إلى الحولة ، وهناك كنا

نصيد البط .. وظلت هذه العادة ملازمة لي سنوات طويلة. كنت أذهب كل سنة. أعرف أناساً كثيرين هناك، وهناك كنا نصيد، في الليل والنهار..

- ولماذا لا تصطاد الآن...؟

كدت أقول أشياء كثيرة، لكن كلماته انزلت على جسدي مثل موجة ريح. قال بحزن:

- من الوقت الذي طارت فيه الحولة، حرمت صيد البط!

- حزنت كثيراً لأنهم أخذوها!

ويغضب أقرب إلى التحدي قال:

- لأنهم أخذوها، ولأني فقدت الذي كنت أذهب عنده هناك.. لقد قتل!

قال الكلمة الأخيرة بكآبة حادة، وكأنه لا يريد أن يضيف كلمة أخرى.

استخرج اللعبة المعدنية، جر سيجارة وناولنيها بسرعة. كانت الأخيرة في علبته. قدمت إليه واحدة. هز رأسه برفض، وقال ليخلق جواً آخر:

- الدخان اللف أطيب من دخان المعامل!

أعدت إليه سيجارته، ولكي لا يرفضها قلت:

- العادة نفسها، يا عم، تجعل سيجارة المعمل أطيب بالنسبة لي!

لم أسأله شيئاً عن صديقه الذي قتل. من قتله! لماذا قتل؟ قلت لنفسي والصمت الثقيل يجم بيننا كشخص ثالث: يجب أن تبقى لدى كل انسان أسرار من نوع ما. صمته. كان له صديق. كان صياداً، صياداً للبط، وقتل! الأسرار غذاء من نوع آخر يمكن أن يعيش عليه الانسان وقتاً طويلاً، وما دام الشيخ لا يريد أن يتحدث فلاحترم رغبته. وما دام

يريد لهذه المساحة من حياته أن تظل بعيدة عن الضوء ، فلا يمكن لأحد أن يفعل شيئاً آخر.

قلت لوردان وأنا أدوس على ذيله :

- استعد يا وردان ، سوف نأتي إلى هنا في الليل .

قال الشيخ وقد بدا لي صوته مشروخاً؛ مختلفاً، وكأنه لا يشبه الصوت الذي كنت أسمعه قبل لحظات :

- انتظر.. القمر لا يزال صغيراً.. عمره الآن ستة أو سبعة أيام ، عندما يصبح بدرًا يمكن أن تأتي .

- سوف أجيء بعد ثلاثة أو أربعة أيام !

- يجب أن تأتي .

كانت الكلمة صلبة وكأنه لا يعينها ، شعرت بقلق جارح . قلت
لأنغلب على الضيق والصمت :

- ماذا ترى .. أي وقت أفضل !

ودون وعي ردد ورأيي :

- أي وقت أفضل ؟

- أقصد الأحسن أن أجيء مبكراً أو متأخراً ؟

- كما تشاء .. لكن أول الليل أفضل .

وسكت قليلاً وأضاف كأنه يتذكر :

- وحتى لو جئت آخر الليل .. أو في أي وقت .

قلت وقد شعرت بظفر غامض :

- سأجيء عند الغروب ، وأبقى حتى يطلع القمر .

- طبعاً .. طبعاً ، الأفضل أن تكون هنا عند الغروب .. المهم أن

تختبئ جيداً ، ولا تزهق ولا تتعب . البط سيأتي ، ولكن يجب أن تنتظر !
- سأنتظر !

تطلع إلي بنظرة تحتمل التساؤل والشك . شعرت ان نظراته تمتزج
بدمي . قلت لنفسني : الشيخ لا يحبني .. ندمت لهذه الكلمة . قلت ..
لا يثق بي .

كانت نظراته تغزل في السماء .. تطير وتحط على كل الأشياء ، لا
يتعب ولا يتوقف . قال في لحظة كنت خلالها أتيه في أفكار حزينة :
- يجب أن تأتي .. والبط يتأخر بعض الأحيان .. هذا طير ، وأنت
تعرف أن الطير يعتمد على ...

ولم يستطع أن يجد الكلمات التي تجول في رأسه . انقبض وجهه ،
فتل رأسه أكثر من مرة ، ثم أضاف بعصبية :
- الطير يتصرف على هواه .. القمر ، الرياح ، البرد .. لا أحد يعرف
ما الذي يسوقه !



قلت لوردان بصراحة ، وقد بدأ المطر :

- انهض الآن .. يجب أن نستريح يوماً أو اثنين ، لكي نأتي ونحن
مستعدين !

لما نهضت شعرت اني جرحت الشيخ . نهض متثاقلاً . ومشينا على
طول الحافة العالية للمستنقع ، حتى إذا وصلنا أشجار الجوز ، قال بتحد :

- سأذهب الآن لألتقط الدجاجة !

- لتلتقط الدجاجة ؟

- لم يبق للغروب إلا القليل .. وأعرف مكان أكثر من واحدة ..
وأعرف كيف ألتقطها !



الفصل السادس عشر

قلت أخاطب القمر بنزق :

- تكور بسرعة. تَمَطَّ في السماء!

استكان صوتي، أصابه ضعف مفاجيء. قلت :

- لا أصدق انك تسوق البط كقطع. يجب ان أرى بعيني.

قلت لنفسي : والملكة هل تستجيب للسياط الشاحبة التي تتسرب من

فجوات الغيوم؟ هل تأتي؟

وبدأت أغني مزموراً بانساً : من الاماكن البعيدة، من وراء التلال

الجرداء، من جهة الغرب ستأتي الملكة، لكن القمر يأتي من الناحية

الثانية. يعبر البحار الواسعة، يعبر الصحاري والغابات، ليصل.

قلت بيأس :

- كان علي أن أسأل الشيخ.

وتصورت أني أسأله : «قل لي يا عم من أين يأتي البط؟ من

الشرق؟ من الغرب؟ وأنا.. أين يجب أن أقف؟ ماذا علي أن أعمل؟

وعيناي هل أشدهما إلى هذه الناحية.. إلى تلك؟».

قلت لنفسي : الشيخ يسخر مني. ألقى كلمة كما تلقي الحجارة،

كما تلقي المواعظ.. ومضى.. لا.. الشيخ يعرف كل شيء. كانت كلماته

واضحة بيضاء. أتذكر انه أشار إلى ناحية الغرب.. لكن عينيه وهو يتحدث، تسلفت أشجار الحور البعيدة. في الناحية الثانية، وكأنه ينتظرها من هناك!

وفكرت: يجب أن أحصر ذهني. كان الشيخ يصطاد البط في الحولة. إذن البط الآن ناحية الغرب.. والقمر. هل يطل على الكون كله في نفس الوقت؟ هل يستطيع أن يجتاز المكان الذي ربضنا فيه دون خوف؟

قلت لوردان بصوت عالٍ لأشده على ضعف زكي نداوي:
- اسمع يا وردان.. يجب أن تعرف كل شيء. قد أموت مبكراً. قد أموت من الغيظ. من طائفة طائفة. وقد يقتلونني. لا يهم كيف سأموت، ولكنني أخبرك شيئاً آخر، يجب أن تعرف كيف حصلت الخزيمة. كان الوقت عصراً. مرت سيارة الضابط بسرعة، بعد أن انقطعت عنا الاخبار أربعة أيام، ودون أية مقدمات قال الضابط:
«انسحبوا.. سيكون الانسحاب غير منظم.. وعلى كل واحد ان يدبر نفسه».

قلت لوردان:

- آه يا وردان.. ان في الانسان شيئاً يستعصي على الفهم، ربما كان الناس في الاماكن الأخرى لا يشبهون الناس عندنا، لكن اسمح لي أن أسألك، ويجب ان تجيب: هل تفعل الحيوانات والطيور.. وأية مخلوقات أخرى مثلما يفعل الناس في بلادنا؟ إذا لم تفهم جيداً يمكن أن أسألك بطريقة أخرى: لو أن سرباً من الطيور قطع الصحراء كلها، وكاد يصل إلى غيضة ورأى الصيادين هل يفكر بالرجوع ليموت في الصحراء؟
حرك وردان لسانه بطريقة بذيئة. مسح جوانب حلقه أول الامر، ثم بدأ يمسح بطنه حتى وصل إلى الخصيتين. قلت له بحزن:

- لا تعرف كيف تجيب ، لكن هل يكذب الانسان عينيه؟ لقد رأيت بنفسى رفوف الترغل وهي تتموج من بعيد، ثم لما تصل أطراف البساتين وتنال عليها الطلقات العمياء، تنحض قليلاً، تنحض لثانية واحدة، ثم تتصرف بدكاء عجيب: ترتفع، تزوغ، تسف نحو الأرض بقوة، تدور دورة صغيرة، لكن أعجب شيء انها تتابع سيرها وتجه دائماً نحو الغرب!

وفكرت: لو أردت ان أسجل فروقاً أساسية بين الانسان والطيء، فإذا أسجل؟ الشجاعة؟ المكر؟ القدرة على التصرف؟
قلت بسخرية:

- الانسان في كل أنحاء الدنيا يحاول اكتساب أهم صفات الطير..
إلا في هذه الأرض.

التفت إلى وردان.. كان يتابع بهمة حفلة الغسيل التي بدأها.. وصل إلى قطعة من ظهره، بدت تستعصي عليه.. قلت له:

- ما تفعله المستحيل.. يا وردان.. وهذه الأرض التي نعيش فوقها أرض الخراب!

وفكرت من جديد: الانسان في الاماكن الأخرى يكتسب من الطير ذكاه، إقدامه، نظامه.. النظام المجنون الذي يسيطر على حركاته وتجعله رائعاً.. الانسان هناك أقدر على التكيف مع الطبيعة.. هنا حالة من الرخاوة والبلاهة.. والبلاهة.

نهض وردان. حاول أن يفتح الباب، حاول عدة مرات. وقف على قائمته الخلفيتين. خرمش، ثم تطلع نحوي وعوى. نهضت.. لما اقتربت من الباب قلت وأنا أنحني:

- لأكن جديراً بخدمة الحيوان.. إذا لم أستطع أن أكون مثله!!
تركت الباب مشقوقاً ليدخل وردان بعد قضاء حاجته، ودون أن

أكلف نفسي بفتح الباب من جديد، وقطع سلسلة الأفكار اللامعة التي تلاحقني كالأمطار.

قلت وغم مفاجئ يخنقني :

- فعلاً.. لماذا لم نسف الجسر؟

وفكرت : صوت الانفجار؟ هل يحتمل أن تكون القيادة فكرت بحماية أرواحنا وأرادت أن تؤمن لانسحابنا أكبر تغطية ممكنة؟ لو وقع الانفجار للمأدويه السماء والأرض، وقد ينتهبون.. وعندها نموت !
قلت بسخرية :

- نحن الآن أحياء. لم نمت. ولا يمكن أن نموت !

كان وردان قد عاد. ارتدى على البساط، وأخذ ينظف جلده مرة أخرى. قلت لنفسي : أعرف هذا الحيوان القدر، انه لا يكف عن عمل شيء في أي وقت : يبحث عن الأكل، يحك جلده بالجدران، يعطس، يلاعب ذيله. وبعد أن يتعب، يغرق في النوم، حتى النوم يفعله بشكل مقدس.. ويختار المكان الذي أجلس فيه لكي ينام !
قلت بصوت ساخر :

- وأنت يا زكي نداوي، الدرة المتألقة في سواد الليل، ماذا تفعل؟

فكرت : الحياة منذ ساعة الميلاد وحتى اللحظة الأخيرة، حالة تمطي وتناؤب، ولا شيء غير ذلك !

قلت لأفنع نفسي بالفكرة : أفتح عيني في السابعة، إذا لم أرد الذهاب إلى الصيد، أغلق عيني، أفكر بعقل مشوش يضيق بين اليقظة والنوم، أتمنى لو كنت نائماً، في السابعة والرابع أنهض بعد أن أمد في الهواء يدين رخوتين في محاولة للإقتران ان ما أفعله ضروري، وان الرياضة تنشط الدورة الدموية. في الثامنة وعشرين دقيقة، في الثامنة وثلاثين دقيقة

أدخل مركز العمل ، أكون قد فكرت في ثلاثة أو أربعة اعدار للتأخر : تأخر الباص ، توقف الباص ، صدام مفاجيء وحاد.. وأرسم على وجهي مظاهر حزن، لعلها تقنع المدير أو تدخل الرأفة على قلبه !

ويبدأ التثاؤب قبل التاسعة ويمتد بلا توقف ، بلا انتهاء !

بدأ وردان يداعب جلد الخروف الموضوع في الزاوية . كان يكوره ويجعله أقرب ما يكون لشكل مدبب ، ويهجم يرفعه ، ينقض عليه ، يمسك به ويجره ، ويتظاهر انه يفعل ذلك بمشقة !

قلت لوردان :

- أنت أذكى مئات المرات من زكي نداوي .. لديك دائماً ما تفعله !

سحبت الستارة قليلاً لأرى المطر، كان صوته يتساقط في أذني كأنه تكتكات ساعة هرمة .

قلت لوردان الذي لم يتوقف عن اللعب :

- لا يزال أمامنا ثلاثة أيام ، حتى يكبر القمر . أتفق معك انه من الغباء مراقبة القمر من داخل غرفة مضاعة ، وأثناء المطر.. وهذا ما أفعله الآن .. أنا غبي جداً يا وردان !

والتمعت الملكة في رأسي . قلت بتحدٍ :

- الخطأ لا يتكرر دائماً ، وآن لي أن أتعلم !

وفكرت : إذا جاءت أسراب البط ، كما قال الشيخ ، فهل يمكن أن أميز الملكة ؟ هل ستكون وحيدة ؟ مع عشرات غيرها ؟ وإذا جاءت في سرب كبير ، هل أتمالك نفسي وأطلق عليها بالذات ؟

وخرج صوتي متحدياً :

- لو حاولت ، يا زكي ، ان تكون متواضعاً ، لأصبحت رجلاً ،

لكن ما دمت تفكر وتتصرف بهذه الطريقة فسوف يقتلك الغيظ . ستأتي الملكة ، ولكن ستمضي ، دون أن تحس بك !

وفكرت : أسراب الترغل تبدو في الافق كغمامة سوداء ، وانتظر في زاوية البستان ، تحت شجرة مشمش عجوز ، أقبض على البندقية بشدة ، وقد التمتعت عيناى بالغضب والتحدي .. وتهوم الأسراب ، وتقرب . أقول لنفسي : انتظر يا زكي ، لا تتعجل ، لا تجفل ، هذا السرب أقرب الأسراب إليك ، دعه يقرب أكثر ، سيمر فوقك تماماً ، سيكون قريباً لدرجة انك تستطيع أن ترمي حجراً ثم تلتقط الطيور . ويقرب السرب ، وفجأة تتحرك قليلاً لتكون أكثر استعداداً ، ويقرب السرب أكثر ، وتفكر : أين يجب أن أضرب ؟ متى يجب أن أضرب ؟ وبيته فكرك . تصيبك حالة من الألم ، تتحرك بعصبية ، تطلق بتلك الطريقة الفجة ، يتموج السرب ، ينخفض من الجفلة المذهلة ، يرتفع ، ينخفض ، يدور .. وتفقد أنت القدرة على أن تضرب الضربة الثانية . سمعت خفقات الأجنحة وكأنها داخل أجفانك !

وتبدأ حفلة الشتم . تحاول اقناع نفسك بطريقة السحرة أن واحدة من الرف قد سقطت . أين سقطت ؟ وبشجاعة الانبياء الكاذبين تتجه إلى مكان تفترض انها سقطت هناك . وتبحث وتبحث ولا تجد .. وتنتظر بتعقل ملكي رصين ، لتقدر فيما إذا كنت تبحث في المكان الصحيح . وتقرر أن تعود إلى شجرة المشمش العجوز . تقول : من هناك أستطيع التقدير بدقة ، ويجب تعليم المكان .. ويمر سرب آخر . كان سرباً قريباً لدرجة انك جفلت لما رأيته قريباً هكذا .

قلت لوردان بمحبة :

- أعجب شيء يا وردان اننا نجد الطير بسرعة عندما نكون معاً ..
لما أكون وحدي أفقد الاتجاه ، وتضيع الطيور .. يجب ألا نفرق ، بعد الآن ، يا وردان !

وفكرت : إذا كانت الملكة وسط السرب ، هل يمكن أن أنتزعتها كما يتزعج الموت أحسن الناس دائماً؟
قلت بثقة :

- الخطأ لا يمكن ان يتكرر يا وردان!
وفكرت : أغرب الأشياء ان نفس الأخطاء تتكرر أغلب الأحيان ، حتى في الصيد تتكرر نفس الأخطاء..
والتمعت في ذاكرتي : أجنحة لا يمكن أن يتصور الانسان أجمل أو أقوى منها ، خبطت الهواء بقوة وهي تنهض .. ثم أنسابت ..
قلت لوردان :

- تصور.. انها بهذا الحجم ... ومع ذلك تطير بسرعة خارقة .
وخضت صورتها دمي من جديد : رقبة طويلة ممدودة في الهواء ،
بياض ناصع كأنه الحليب .. لا ليس بياضاً ، كان لونها أقرب إلى التراب المحروق ، لكنه متألق .. وهذا الاختلاط المزدهم من الألوان .. كيف يستطيع طير واحد أن يمتلكها؟
صرخت بتحد :

- ليست طيراً .. انها شيء خارق .. عنقاء هذا الزمان .
فكرت : كيف أستطيع قتل هذه الزانية؟

قلت لنفسني : لو وقفت عند الجسر ، في المنعطف الحاد للنهر ،
وأشجار الحور ورائي كمظلة ، يمكن أن ألتقط الطيور الآتية من الشرق بسهولة . المدى فسيح ، والمسافة بيني وبين المستنقع لا تقل عن ثلاثين متراً ..
وهذه المسافة تكفي لقتل آلاف الطيور .. سوف أتركها تعبر أشجار الحور ،
وعندما تصبح موازية لي أستدير قليلاً معها ، حتى إذا مالت ، أطلقت عليها . وفي الفسحة الكبيرة ، قبل المنعطف ، على الأرض المعشبة الخضراء ..
تهوي .

قلت بصوت يركض فيه الفرح :

- دي .. دي .. دي .

وحاولت أن أرسم للصوت بطولة خارقة . قلت لنفسني : لا يمكن أن يكون لصوت السقوط هذا الثقل الهائل .. حتى الطبول التي كان يستعملها الاقدمون في الدعوة للحرب ، لم تكن تخلف هذا الدوي كله .

وفكرت : الحروب القديمة .. الطبول التي كانوا يستعملونها .. الناس البسطاء الذين يحاربون .. كانوا يفعلون أشياء كثيرة ببساطة ، دون خوف ودون كلمات كبيرة ، ولم يكن عدد كبير منهم يموت ، وعندما يرجعون يتحدثون بتلك الطريقة وكأنهم لم ينتصروا .. أو لم يفعلوا شيئاً خطيراً .

قلت بحزن :

- اسمع يا وردان .. الدنيا تغيرت كثيراً ، لم يعد الناس هذه الايام ، يفكرون بالانتصار .. وتصور ان كلماتهم كبيرة لدرجة أن أحداً لا يجزؤ على استعمالها دون أن يكون كاذباً !

استغل وردان الفترة التي خرجت خلالها من الغرفة . ماكدت أرجع حتى رأيته في الزاوية إياها وقد تظاهر بالنوم . قلت بمكر :

- حتى أنت يا وردان بدأت تتعود . اكتسبت من زكي نداوي صفات كثيرة : التظاهر .. الكذب ، وأشياء لا أريد .. أو لا أستطيع أن أسميها !

فكرت : لو أردت الوصول إلى نتيجة ، لتحديد زمان الانهيار وأسبابه ، ماذا أقول لزكي نداوي؟

شعرت بقشعريرة باردة . تطلعت إلى وردان بمرارة ، قلت له بحقد :

- اترك المكان أيها الكلب الضال !

تحرك قليلاً . قلت لنفسني : يعرف معنى الكلمات ، لكنه يقاوم . لقد

طردته من هذا المكان مئات المرات ، ومئات المرات عاد. لا يعرف معنى التسليم أبداً، انه يحاول بلا توقف، ولكني لا أزال قوياً وأنائياً، وما زلت قادراً على طرده .

قلت لنفسى : هل يأتي يوم وأترك له المكان؟
قلت بأسى :

- لقد سلمت مرات كثيرة، وقد أسلم من جديد، المهم أن يستمر وردان بالمقاومة .

وفكرت : لو غيرت مكان المقعد، هل يغير وردان عاداته؟
قلت بلؤم :

- وردان عكروت ولعين، مهما حاولت معه فانه يعرف كيف يتصرف!

رفعته من أذنيه . كانت الطريقة التي اتبعتها قاسية لدرجة انه فتح عينيه بغضب . نظر اليّ دون ان يعوي . قلت :

- قل شيئاً أيها الكلب الذي يتلقى الإهانات بصمت .. ألا تفعل شيئاً؟ ألا تدافع عن نفسك؟

كومت بصقة كبيرة في حلقي وابتلعها . تركت أذني وردان، فسقط .
قلت بصوت مشروخ :

- سأتحلى لك هذه الليلة عن العرش . أريد تكريمك ولو مرة في العمر.. هل تتقبل التكريم يا وردان؟

حاول ان يجمع نفسه من جديد . تحرك كثيراً، ثم أسبل رأسه على بطنه وتكور... وبدأ ينام!
قلت بحكمة :

- آه لو امتلكت بعض صفات هذا المخلوق .. اصراره مثلاً .

وفكرت : أكرم الليلة وردان ، لعله يساعدني في الليلة العجبية !

لا أعرف لماذا ضحككت ، وسقطت من حلقي كلمات غبية :

– الاصرار أفضل آلاف المرات من أي شيء آخر!

قررت أن أتوقف عن التثاؤب. قلت بتحدٍ:

– انغرز في الأرض كوتد ميت .. أقرأ حتى تتعب ، ثم اذهب للنوم

فوراً ، وإذا ذهبت للنوم يجب أن تنام. أفعل كل شيء في وقته ، لأن فعل

شيئين في وقت واحد ، سيؤدي إلى خسارة الشئين معاً!

رفعت يدي بتسليم يائس ، ووجدت رأسي يهتز اهتزاز الكلاب

الصناعية في السيارات.

حاولت أن أقول شيئاً.. وجدت صوتي يخرج وكأنه ارتطام الصفائح

الفارغة.. وقررت أن أكف عن الكلام!



الفصل السابع عشر

.. في الشتاء، في شباط بالذات، ينبع الإحساس بالظلمة من كل شيء، حتى الشمس العاهرة تنث برداً زجاجياً عندما تظهر، ولا تتعب من تلك اللعبة السمجة: لعبة الظهور والاختفاء.

قلت لوردان، ونحن نعبر بين البشر، ثم نجتاز باب شرقي، قبل الغروب:

- الليلة موعدنا مع الأفعى!

وطب الموتور في حفرة مليئة بالوحل. صرخت:

- الخيبة تنبع من كل شيء: الجسر المتروك هناك، الزانية التي تلف الدنيا ولا تتعب، ومن الحفرة التي تختبئ.

شعرت بالمرارة وأنا أفكر: الخيبة تبدأ ساعة الميلاد، من الأيام الأولى، ومع الحليب تتمطى، ثم في الأزقة تنمو، وعلى مقاعد الدرس تكبر.. وتسير كالظل في الشوارع، ولا تغادر انسان هذه الأرض، تسكن لحمه وعظمه...

لما وصلت في تفكيري إلى الجسر، قلت وأنا أتذوق المرارة:

- الجسر. الجسر المصيبة.

وفكرت : يجب أن أعترف ، الجسر ليس البداية ، الجسر اللعنة التي
اصابني في مرحلة معينة .

بدت أشجار الجوز ، وهي تتشابك فوق الطريق الضيق ، جسوراً بلا
نهاية . صرخت بحدة :

- لتتحطم جميع الجسور في العالم .

فكرت : ماذا يحصل لو أن الجسور تحطمت في هذا العالم؟
ألا تعتبر الجسور هوماً ثقيلة؟

وشمخ الجسر في ذاكرتي ، قلت لوردان وأنا ألكزه بركبتي :
- لنشل يميني ، يا وردان . لنشل تماماً وأصبح عاجزاً فلا أستطيع
رفع يدي إلى رأسي .

وفجأة وجدت نفسي أرفع يدي في الهواء وألوح بها ، بدت لي اليد
مخلوقاً زائداً ، ليست لها علاقة بالجسد . مال الموتور قليلاً . استعدت يدي
بسرعة ، لكي أتوازن من جديد .

قلت لوردان :

- سأقطع يدي ذات يوم وأدفنها ، لأنها زائدة وعاجزة
فكرت : اليد أداة . الجسد أداة أكبر . العجز ليس في اليد ولا في
الجسد ، انه هناك .. داخل النفس . والانسان إذا استطاع أن يبيد العجز في
داخله يتحول إلى مخلوق عجيب . قلت بحدة :

- الانسان أكبر قوة في الكون ، وهذه القوة ليس لها حدود!
وفكرت : الكهرباء قوة لا ترى ، لكنها لا تحد .. كذلك إرادة
الانسان ، تصميمه .. والانسان عندما يكون مع الآخرين يتحول إلى شيء
خارق لا يمكن مقاومته أبداً .

دفرت وردان مرة ثانية . دفرته بحقد . تكور . رفع ظهره قليلاً ،
وتطلع نحوي بطرف وجهه كأنه يتساءل . قلت :

- في فترة معينة كنا أقوياء يا وردان . كنا سبعة رجال والشعور الذي
كان يتدفق في داخلنا لم يكن يهزمه شيء .. تصور .. بيننا الجسر في أيام ،
كنا نغني له ولا نتعب .. كنا نحبه كثيراً ، ولو تركونا لحملناه أربعة
كيلومترات ووضعناه على النهر دون آلات ودون مساعدة أحد .. لكن
لم يتركونا .

فكرت : اين أصبح الرجال الآن؟ الأسطة ، ذياب ، رمزي ،
أحمد ..

قلت لنفسي : لو استطيع سحب العصب من خصيتي .. لو فعلت
ذلك لشعرت بالراحة . يجب أن أنتقم من نفسي . كنت خائراً ، مسلوب
الإرادة .. ليس هذا فقط ، حتى التفكير كان صعباً بالنسبة لي .. آه
لو فكرت !

قلت لوردان :

- لتأكد من شيء واحد يا وردان : لن أترك الجسر حياً في المرة
القادمة !

تحرك وردان كأنه يحتاج . اختل توازن الموتور قليلاً صرخت :

- تحرك كأفعى . افعل ما تشاء ، فانا باق كصخرة .

ضحكت . قلت لنفسي : السخرية طريق الرب . ألم يسخر الرب من
البشر الذين خلقهم عندما أغراهم بأكل التفاح الذي خلقه ، ثم طرد البشر
والتفاح من الجنة .

بصقت . إتوى الطريق وانفتح . طار شحور ورافق طيرانه ذلك
الاستفزاز .

قلت :

- لا تتحد.. لست انت الهدف الذي اركض وراءه !

لما وصلت ربطت الموتور إلى شجرة الجوز.. انني افعل ذلك لأول مرة ، ربما خوفاً من الظلام. قلت وأنا اربطه.

- أنت حصاني ، ويجب ان أحرص عليك !

شعرت بالخجل لما ربطته ، لكن شعور الخوف بدا لي أقوى من أي شعور.

فكرت : لو أن الموتور سرق ، فسوف أترنح ساعات على الطريق ، وعلي أن أذهب ، بعد ذلك ، إلى مركز الشرطة . وهناك سأجد شرطياً يأكله النعاس ، وبعد أن ينظر إلي بانزعاج حقيقي ويتأهب ..

قلت لوردان :

- ارفع يديك للرب ، للطبيعة ، لا أعرف.. وقل له ان يفرج عن القمر.. أما إذا حاول السخرية منا ، كأن يلقي بظله فوق الأشياء بما فيها القمر، فلن تأتي أسراب البط !

كان البرد ملهوفاً مشبعاً برائحة المطر. قلت برجاء :

- تأخر أيها المطر.. أو لا تأت .

أخذ وردان يقفز برعونة ، حتى بدا لي في لحظات معينة فرحاً . ناديت :

- وردان .. التفاؤل سلاحنا ، لكن لا نفرط !

قلت لنفسني : لو بدأت بالسمن فسوف تنسحب أية خيبة إلى الاعماق البعيدة . يجب ان أتوقف عن الفشل .

لم أكن ارغب رؤية أحد في تلك الساعة. حتى الشيخ لم أكن أريد أن أراه. قلت لوردان:

للسنا وحيدين الآن، يا وردان، والانسان وحيد بمقدار ما يريد. الغروب.. رياح باردة تعبر المستنقعات والأشجار.. وطيور السمن رشيقة مليئة بزهو فاجع.

قلت لوردان:

- اليوم نمنح الحياة للسمن.. نمنح الحياة للجميع!

وفكرت: لو كنت استطيع لما وفرت طيراً واحداً من طيور السمن، لكن الخيبة جبل طويل، حتى ليبدو بلا نهاية. فاذا فشلت مع هذه الطيور الملكية، أصبح عصيباً، مجنوناً، لاحظت ذلك كثيراً، الفشل يجر فشلاً آخر، والملكة تحس بغريزة مجهولة، مثلها مثل أية انثى!

اجتزت المستنقعات. كان الجسر يقف بشموخ، لا يأبه لنظرات البشر. قلت لوردان الذي توقف قبل الجسر:

- تمهل قبل ان تعبر الجسر.

فكرت: الجسر الآخر.. الرجال.. تلك الأيام القاسية الطويلة اللامجدية في الصيف.. أول الصيف..

قلت بصوت عالٍ.

- لو كنت يا ذياب هنا الآن لطلبت اليك ان تغني لهذا الجسر أيضاً.

تطلعت للجسر من جديد، كما لو اني اراه أول مرة. بدا صغيراً عنيداً وأقرب إلى التحدي. قلت بتحد:

- ايها الجسر الاعرج، من انت اذا قارنت نفسك بجسرننا

تطلعت إلى الجسر من جديد، توقفت في منتصفه. الماء يترنح. كان لونه أخضر مائلاً للسواد. القصب على الجانبين كالحراب الغاضبة، أما التيار، وهو يضرب القائمة المنهارة فأشبهه ما يكون بعث الأطفال. قلت له بصوت رصين مشبع بالثقة:

- انت جسر قوي!

فكرت: كانت المياه هناك تتدفق، والنهر بامتداده اللانهائي، بتعرجه العابث، وأشجار الحور التي تملأ كل شيء، وتحد من الرؤية، كان كل ذلك رائعاً هناك. قلت بغضب:

- ايها النهر الذي احببت أن اعبره، ولم استطع، كيف أنت؟ فكرت، لماذا لم يتركونا نعبر؟ لماذا لم يتركونا نفعل شيئاً؟ بصقت، قلت:

- أيها النهر.. انت موجود دائماً.. وإذا سرقوا ذلك الجسر فسوف نبني غيره، لا تخف!

بصقت في النهر سارت المياه بسرعة. قلت:

- يا زكي نداوي، انت بعوضة مسنة، ليس فيك إلا طنين اعور! هززت رأسي بما يشبه التهديد. اجتزت الجسر، وبدأت أزرع الأرض لكي أختار المكان المناسب.. آلاف الملاحظات المتبورة تتدفق في رأسي.. تذروها رياح شباط المحمومة بذرات الصقيع. قلت برجاء:

- لا تتأخر أيها القمر المقدس.

تلقت في جميع الاتجاهات. اشجار الحور هناك.. وطيور السمّن وذلك البرد الحزين.

فكرت: أية برودة لها علاقة بعصور الانسان الأولى ستترع احشائي؟

صرخت : وردان .. الانسان عندما يكون وحيداً يتملكه برد ازلي ،
برد بدائي لا يقاوم !



- تقدم يا ليل المتوحدين . اخط بغضب ولا تتردد ، فانت والبشر
اصدقاء .

ضحكت من هذه العبارة الثقيلة الممدودة بلا جدوى !
فكرت : الوحدة نافذة مغلقة . نهر بلا جسر . الوحدة قاسية وتقود في
طريق الموت !
صرخت :

- وردان .. لا تبعد ، سوف نقف هنا !
اشرت إلى الزاوية . قلت لنفسى : المنعطف بدايتنا ونهايتنا .
صرخت على وردان :

- طلقات الرحمة يا وردان .. طلقات الرحمة ما أريد . ولأصبح
كلباً مقطوع الذيل إذا صاوبت الملكة وأخطأتها ، لكن يجب أن تقول لي
من اين ستأتي !

اقترب مني وردان . انتزعت السترة الثقيلة وألقيتها على الأرض . كانت
الأرض رطبة ، لكن دون مطر . قلت لنفسى : الاحساس بالدفء أهم من
الدفء ، ثم اني صياد .

بصقت على الأرض . قلت بصوت عال :

- أي نوع من الرجال هو زكي نداوي ؟ يكلم الاشجار والحجارة .
يكلم النهر والجسر ، ويعتبر وردان صديقه الوحيد .. ويتنظر .
ابتسمت بحزن وقد ملأني شعور طاغ من الأسى . تابعت بتعزية
رخيصة :

- زكي نداوي ينتظر الملكة !

ارتيمت على الأرض . دعوت وردان فاقترب . أمسكت بأذنه وقربته
مني أكثر، عاند أول الأمر ثم استجاب قلت له :

- هبت ريح باردة الآن وأنا اشعر بالبرودة تسري في عظامي ، لكن
رغم كل شيء لنقسم ان نقتل الملكة !

أخرجت سيجارة وقربتها من فم وردان . تشممهها ثم عطس .
اشعلتها . قلت لنفسي : اليوم نهاية الملكة الحزينة .

حاولت أن أتمثلها . بدت لي متداخلة الألوان ، وأقرب ما تكون
لدجاجة كبيرة ، أغمضت عيني قليلاً . قلت :

- وردان .. اليوم يومنا . تمالك نفسك . اجمع الشجاعة مع الصبر
وسوف ترى !

فكرت : سوف نفرق أنا ووردان في خضم سعادة لا تنتهي . الريش
للوسادة . والوسادة لرأسي ومرجوحة لوردان .. صرخت بفرح :

- لك .. لك كل شيء يا وردان !

غابت السماء ، امتلأت بغيوم معتكرة ، وركضت الظلمة بسرعة .
صرخت بفرح :

- اقبلي بسرعة يا ظلمة السماء ..

نهضت . ارتديت السترة . أمسكت البندقية . كانت البندقية شديدة
الصلابة . قلت لنفسي : بداية الظفر !

لم يكن ممكناً ان أبقى في نفس المكان . تحولت . كانت الغيضة المليئة
ببقايا القصب مسرحاً كبيراً . قطعت الغيضة مرات كثيرة ، وفي كل مرة
اقترب المساء أكثر فأكثر، حتى خيم على كل شيء . صعدت ابتهالات حارة

لشيء ما أن يعجل بالقمر. بدا لي الشرق مليئاً بتوقع أخضر، وبدا بتموجاته
الساخنة التي تمتص من المساء البرودة مازحاً!

قلت لوردان الذي كان يبدو ضحراً:

- عاشق المساء ينتظر ملكته يا وردان.. الملكة ملفوفة بالمجد، وانت
الصديق الوفي.. والاصدقاء الاوفياء، يا وردان، في هذه الدنيا أكثر ندرة
من الجسور الصامدة، اندر من الجسور المنسوفة!

تلفت بخوف، تصورت أحداً سمعني. بدا ضوء القمر بعيداً. قلت:

- يجب أن نستعمل عقولنا للتفكير العميق يا وردان.. وانت يجب
أن تفكر جيداً!

بصقت. قلت لنفسي: اجتر الافكار البائسة. ارددها لكي احفظها،
لكن من أنا؟ أنا حيوان بلا ذاكرة.. صاحب الرأس المثقوب. أضفت
لنفسي بحزن شديد: الذاكرة بالنسبة للانسان هي التجربة، وهي التي تمنع
الهزيمة!

صرخت بوردان الذي عوى من الفزع:

- لن تتكرر الهزيمة.. لن تتكرر يا وردان أبداً!

انغرست في الزاوية، وانغرس البرد في عظامي. لم أعد أقوى على أن
أواصل السير. كان علي أن أقف. بدا الزمن طويلاً مليئاً بتوقعات خرساء.
نظرت ناحية الشرق، فبدا ضوء القمر أكثر سطوعاً. قلت لنفسي ببسالة:
سيكون الضوء باهراً والغيوم تبتعد!

البندقية في يدي قطعة من الثلج. قطعة ملتبهية، وكأنها مخرز ينفجر
في العظام. نقلتها من يد لأخرى. قلت لنفسي: لأجل الملكة تسجد
الرعية.

- وانت ايها الشيخ، لماذا لم تقل لي من أين ستأتي؟

الشرق يمتلىء بالضوء الزاهي . القمر يزحف من وراء أشجار الحور
برتقالة صفراء ضاحكة . قلت :

- انت يا قمر سلة ورد . انت ضحكة عاشقين . انت يدا عاشقين
لا تتعبان من الدفء .. وانت يا قمر الهزيمة !

أصابني ألم مفاجئ . قلت لنفسي : أنت يا زكي شديد الحزن !
فكرت : القمر مخلوق محايد وأخرس . في ضوءه يتمرغ الفرحون ،
المنتصرون .. أما الجبناء ، المهزومون ، فانهم يدفنون أنفسهم في شحوبه
الذي لا ينتهي !

تجمدت أنفاسي . أصابني رعب مفاجئ . رأيت شبحاً يحوم قريباً من
أشجار الحور ، صرخت بصوت مخنوق :
- اقتربت الملكة !

بان الطيف واختفى . ظل التوتر فوقى مشدوداً كحبل الحرير . قلت
لوردان :

- جاءت البشائر ، وانت ياكلبا ضالا يجب أن تستعد !
تطلعت في جميع الاتجاهات . كانت قطع الغيوم الصغيرة تتراكم
في السماء ، كأنها الكرات المهترئة . قلت لنفسي : لما كنا أطفالاً لعبنا
بكرات الخرق . كانت كرات مستطيلة ، مبعوجة ، ولا تشبه الكرات أبداً .
صرخت :

- أيتها الغيوم أنت كرات من ورق !
السكون حاد ، ما عدا أصوات الليل ، وهذه الاصوات لا يمكن ان
تعس تماماً ، انها تتسرب من كل شيء ، حتى تصبح جزءاً من كل
شيء ، ولا يمكن إدراكها ، إلا في لحظة الانفصال عنها . قلت لنفسي :
الانسان مستودع .. مستودع كبير وغني !

قلت لوردان باستسلام مليء بالرجاء :

- يجب ألا نمل من الانتظار يا وردان.. ثم نحن خيول خشبية
فقدت قدرة الصهيل.. لا تخف من البرد والانتظار!

حام وردان حولي. كان مطيعاً ومزهوا. راودتني فكرة الموت. قلت
لنفسى: الموت حالة توقف، الحالة التي ستجابه كل انسان... وأفضل ألف
مرة لو مت عند الجسر!

هل يتفتت الزمن إلى هذه الدرجة؟ قلت ذلك لنفسى وأنا أتطلع إلى
الساعة، أضفت بثقة: الزمن لا حدود له، ليس له بداية وليس له نهاية،
أما الشيء الذي له بداية وله نهاية فهو الاحساس، الاحساس بالزمن!

البندقية الباردة تتحول في يدي إلى قطعة من الحديد المحمي. نقلتها
من يد لأخرى. تطلعت إلى السماء، فبدت كبيرة مورقة، كأنها حديقة
مستديرة، وبدا القمر من بعيد، وقد تجاوز أشجار الحور. كان القمر
محاطاً بهالات ضبابية ناعمة، جعلته يبدو أكبر وملوناً.

قلت لوردان بصخب، لأبعد الخوف والضجر:

- ما دام القمر يقترب فانه يسوق أمامه أسراب البط، والملكة في
وسط الأسراب كنجمة مضيئة.

فكرت: لا أتصور ان الشيخ يسخر مني. السنوات الخمسون تجر
وراءه خطاها بصعوبة، تلهث وراءه لتدركه، لكن خطواته الكبيرة،
شجاعته، بساطة نظرتة، أقوى من كل السنين!

قلت لنفسى: يجب أن لا استهتر بالقمر. البحارة ينتظرونه في أعالي
البحار، عند أبواب الخلجان، ينتظرونه بلهفة لكي يسوق الموج.. القمر
ليس شيئاً سهلاً!

قلت لوردان:

- يجب أن نحب جميع الأشياء التي حولنا وان نثق فيها، وأنا احداثك عن القمر يا وردان، أنظر.. هذا صديق يمكن ان يوثق به !
البرد يزداد ويتسع في كل ما حولنا. كان ينبع من الأرض، أما موجات الريح فكانت تكفه ثم تطلقه سهماً صغيرة حادة.. ومن داخل المستنقع تملأ أصوات لا ترى. أصوات مليئة بالبرودة.
أتلقت. أنتظر. أنقل البندقية من يد لأخرى. تشتعل في داخلي رغبة التدخين. أكتمها.

قلت لنفسي: كنا نقطع عن التدخين ساعات أثناء الحراسة. كانت السجارة في ذلك الوقت عدواً. السجارة الآن هزيمة!
قلت لوردان بصوت عالٍ:

- إذا قتلنا الملكة نمنح أنفسنا اجازة طويلة. يجب ان نتنف ريشها، ان ننشره في الشمس بعد غسله، ان نرتبه ليكون وسادة تليق بظهرك ورأسي!

فكرت: يجب أن أطلق عليها في اللحظة المناسبة. لأتركها تعبر بداية الغيضة، حتى اذا أصبحت في خط مواز.. أطلقت.

قلت لنفسي: سأترك وردان يركض. لكني سأركض وراءه كبطل أسير أتيح له الهرب.

اقترب القمر. أصبح كبيراً مشبعاً بتلك الهالة المحيطة به، قلت له:

- انت صديق البحارة والصيادين. صديق المحبين والذين يدافعون

عن الجسور، انت صديق لي يا قمر!

فكرت: منذ هذه اللحظة بدأت أحب القمر. انه صديق حقيقي

ويده دافئة.

نقلت البندقية. نقلتها مرة أخرى. كنت أفيض بتصميم في أن أكون

صديقاً لشيء ما!

قلت بصوت فيه مودة :

- لنتم بمزيد من دجاجات الأرض ايها الشيخ .

في لحظة مجنونة مليئة بالسكون ، مليئة بالضوء .. رأيتها !
أية مشاعر للفرح يحملها قلب الانسان؟ أية غبطة حقيقية يمكن أن
تفجر في عروقه؟ أية أشياء جامحة غزيرة تهب في لحظة صغيرة؟
قلت لنفسي : جاءت .. جاءت بأبهة الملوك ، ببسالتهم بجلالهم ،
ويجب أن تكون ملكة !

لأول مرة أرى الملكة على هذا البعد . كانت تسبح في الضوء ،
تتراكض ، تتراقص ، كانت أجنحتها هذه المرة مليئة بذلك اللدع الذي
لا تحسنه غيرها . كانت هادئة ، زاهية ، متجبرة ، طاغية .. وكانت تتقدم !

القمر يرش عليها ضياءه المهور ، وكأنه يحتضنها وينثرها في نفس
الوقت ، والرياح كالأيدي الطرية تهددها . أما الأشجار التي تجاوزتها
بهدهو ، فقد انحنت لها بقداسة أقرب إلى خفقات القلب .

كنت سعيداً ومتألاً . كنت خائفاً . كنت امتلئ بشوق مجنون . كنت
أذوب وانفجر في نفس الثانية .

ما أعجب الانسان ، وما أعظمه . شعرت بغبطة حقيقية ، حتى كدت
أصرخ وأقبل الأرض ، لكنها بجبروتها القاتل ظلت تتقدم . ولا ترضى ان
ترك لانسان شيئاً .. لحظة ان يقول أو يفعل ما يترنج في ذاكرته من أفكار
وأحلام .

مددت البندقية . كان القمر في فم البندقية . ارضيتها قليلاً حتى
وازتها . تركتها تعبر الغيضة . تركتها توازيني . تركتها تخرج من موازاتي قليلاً ..
والفرح الأسود يغلي في عروقي . كنت أريد أن استبقها بالطلقة ، لكنني تركت

للنشوة ان تستبد بي . عبرت . تجاوزت قليلاً . والنشوة تفور ، تركض في
دمي ... وفي لحظة ، لا اعرف متى .. كيف .. أطلقت !



- انت يا وردان قط أعمى .. لن تفرح باللذة ولا بضوء القمر!
هكذا صرخت بوردان بعد الطلقة ، وبعد ذلك السقوط الشامخ !
وبلغة أقرب إلى التحدي ارتفع صوتي مرة أخرى :

- وأنتم أيها الآباء المقدسون .. لماذا تنتظرون .. اركضوا .. لتركض
معاً ، ولنصل من أجل الملكة ثم نلتقطها !

وصلنا .. انا ووردان ، بداية المستنقع معاً . كانت أعواد القصب
كرماح هوجاء تقف وتسد الطريق . تقدمت قليلاً لأشق لوردان ممراً .
رأيتها .. كانت هناك . كانت تدفر الاعواد ، وتخوض في الماء . كانت زفرتها
موجعة ، وشخيرها حاداً أقرب إلى الشتيمة . كنت أراها في ضوء القمر .
كنت أرى ارتعاش جناحيها . كانت ارتعاشات محمومة ، صاخبة ، خائفة .
قلت لوردان :

- لا تتخشب كجثة خائن يا وردان .. تقدم وانزعها !
وضعت البندقية على طرف الأرض الصلبة . مددت يدي وأزحت
القصب . قلت لوردان بصوت حنون :

- انت يا وردان حصان .

ظل وردان يدور ويحمحم . يتقدم ويتراجع ، لكن دون أن يصل
القصب . انتزعت مزيداً من اعواد القصب . غرقت قدمي في المياه الموحلة .
قلت لوردان وأنا التفت إليه بفرح :

- سننام على وسادة ملكية ، يا عكروت .. لماذا تدور حولي ..

تقدم !

لم يتقدم وردان . ظل يعاكر الريح ، وظللت اعاكر القصب . شققت فرجة صغيرة .. ثم تراجع . وقفت مثل قائد ظافر ، واشرت إلى الملكة بيدي كلها . قلت لوردان :

- تقدم ايها العريد ، لقد فتحت لك الطريق !

ابتعد وردان .. ابتعد وعوى .

كانت ما تزال ترفرف باجنحتها المرتعشة الباسلة . كانت تضرب القصب والمياه ، فتخلف ضجة تخفقها أصوات الشخير المجنونة . قلت لوردان الذي ابتعد :

ر - لا تخف ايها الصل .. انها الملكة ، ثم اننا قتلناها ، ألم تر بعينك ايها الصل الأعمى ؟

ظل وردان يتراجع ، حتى لم أعد اميزه بوضوح . كنت أرى حركة جسده المرتعشة ، ولا اراه . كنت اسمع ركضه المجنون ولا اراه . صرخت ، ناديت .. ووردان لا يسمع !

تقدمت نحو القصب مرة أخرى .. دست في الماء لأختبر أرض المستنقع . كانت الأرض رخوة . سمعت لقدمي صوتا وهي تنغرز في الطين . سحبتها . فكرت : لماذا تحنط الخنزير المتعجرف ؟ لماذا لا يساعدني ؟

تراجعت . تراجع خطوتين . ووقفت . اصبحت حركتها تخبو شيئاً فشيئاً . لكن بين لحظة وأخرى اسمع شخيرها كأنه استغاثة . ناديت وردان . شتمته . ولم أره .

في لحظة ما قررت ان أخوض في الماء لكي انتزعها . لم أكن احتمل الصبر أكثر . أما وردان ، زق العهر المتحرك ، فقد يشت منه . رفعت عن ساقى وخوضت . استندت إلى الحافة ، واستعنت بأعواد القصب . زلقت قدمي في الماء . كدت انقلب على جنبي ، لولا اني تماسكت . بدت لي المياه عميقة ، والأرض أكثر رخاوة . قلت في نفسي : اختبرت قبل أيام

المياه في البقعة بالذات .. لم تنغرز العصا أكثر من شبر.. لأقل شبرين ، انها ليست عميقة !

بدت لي الملكة بعيدة ، بعيدة . تصورت استحالتها مرة أخرى . شتمت وردان . صرخت وأنا اتقدم بحذر :

- كن قريباً مني ايها الخنزير ، لأكون أكثر ثقة !

لم التفت لأراه . تقدمت . المياه أكثر عمقاً ، والأرض أكثر رخاوة . فكرت بالتراجع . لكن رأيت ارتعاشة الملكة . كانت ارتعاشتها نداء شديد الاستفزاز والكآبة . قلت لنفسني : مهما حصل يجب ان تنام بين يدي الآن .. ستنام كقديسة ، وسوف استخرجها حتى لو غرقت !

أشبار قليلة ما تزال بيننا . الماء بارد بارد . شعرت ان ناراً ساخنة تكوي كل خلية في جسدي . قلت بتحد :

- يجب أن افعل شيئاً أفخر به !

قرفت . استبدت بي كآبة . قلت بسرعة :

- ليس الفخر ما افكر فيه .. انه شيء آخر لا اعرفه !

اقتربت أكثر.. اقتربت كثيراً . هدأت حركتها تماماً . كان القمر ينصب كشلال . المستنقع رخوا شديد الاهتزاز . الأرض فقدت استواءها .. قلت :

- الخطوة الأخيرة .. وينتهي كل شيء !

انتفضت كأفعى لما اقتربت منها تماماً . رشقت وجهي بالماء وهي تنتفض . اجفلت . احسست نفسي عارياً ووحيداً . قلت لأشجع نفسي :

- انتفاضة الموت .

وقفت في وسط المستنقع أفكر . كانت الاشياء حولي واسعة ، هشة

كثيرة .. والمستنقع بالذات كان شديد الانساع والكآبة . وفي لحظة بدا لي وكأنه عدو مخيف . فكرت : ماذا لو مت الآن ؟ وهذه الزانية .. ماذا تستطيع ان تفعل ؟

قلت لأقهر الخوف :

- انت الآن خرقة بالية . قطعة ريح صغيرة لا تلبث ان تهدأ . تلفت أبحث عن وردان . صرخت لأمتلك شجاعة اضافية استعين بها :

- كن قريباً .. اقترب ايها المسخ الموعج الحنك !

تقدمت تلك الخطوة . كانت يدي وهي تمتد خائفة شديدة الجفلة . فكرت : هل تعض ؟ هل تنتقم ؟ قلت لنفسي باصرار : الموت يتسرب منها . ارتعاشات اخيرة وتنتهي . تشجع يا ذا الوجه المحروق .. واقبض عليها .. انها الآن مجرد طير ينزف ويموت !

بدت لي يدي وهي تترنح في الهواء ، وكأن ليس لها علاقة بجسدي . قلت وانا ألوح باليد الأخرى :
- اقبض عليها ولا تتردد !

وتزلق يدي ببطء في ضياء شاحب . اراها تنزلق : سريعة وبطيئة ، شجاعة وخائفة ، متماسكة ومتلاشية . سمعت اصواتاً تصطك في في .. قلت لنفسي بحزن : من الغيظ فقط ، انا شجاع بالمقدار الضروري .

صرخت برعب اخرس :

- حالة الامتلاك الحقيقية !

ما أقوى الانسان وما أشد ضعفه . كانت المسافة الباقية حتى تملكها يداي صغيرة متلاشية في لحظة المواجهة الحقيقية . انتفضت . كان انتفاضها

زمجرة مرعبة. أما شخيرها فقد بدا لي اقسى من الأوامر التي اطلقت في
وجوهنا برخاوة مميتة : « انسحاب غير منظم على كل واحد ان يدبر نفسه » .
رأيتها تمد نفسها في العتمة المشة . رأيتها تستدير . قلت لنفسي : آه
لو كانت بيدي عصا !

فكرت : مية .. مية الآن أو بعد لحظة ، والخوف عدو الانسان ،
عدوه الوحيد .

تجرات . انتزعت يدي من اعماقي ، وقلت لها :
- امتدي يا راية الهزيمة !

كنت فرحاً وخائفاً . شعرت بامتلاكها الحقيقي . شعرت باستحالتها .
قلت لنفسي : اقتنع انها لا تعض . وينتهي الأمر . فكرت : لو عضتني ..
ما هي ؟ عضة ملكة .. لدغة صغيرة ، ثم ان مقارها المفلطح يشبه منشاراً
أعمى .

شخرت في وجهي . تراجع إلى الوراء خطوة صغيرة مضطربة .
انخفض الماء . احسست ببرودة أكثر من قبل . قلت بتحد :

- بطة مية أنت .. وأنت قصبه فارغة في مستنقع مليء بالقصب
الأقوى !

امتلكت جرأة مفاجئة . تقدمت بتصميم على أن لا اتراجع . انشد
وجهي بحقد ، وانفجر صوتي إلى الخارج . كان صوتي محارباً :

- أيتها الزانية المباداة ، أحطمك الآن لو تنفست ، ما أنت يا حقيرة ؟
ابتعدت قليلاً . كانت وهي تتحرك تشبه زورقاً صغيراً ملوناً . فكرت :
إذا ابتعدت أكثر .. اذا انزلت إلى وسط المستنقع ، فهي المأساة ذاتها .
قلت برقة بائسة :

- أنت لي ولنختم هذه اللعبة !

تحركت بقوة، لكن بنقل. كانت تريد أن تفعل شيئاً. اصابها عجز مفاجئ. جمدها. قلت:

- يا ملكة الزمان الماضي.. انتهت الرحلة!

تقدمت. قلت لنفسي: اشرب مياه المستنقع كلها ولا ادركها! امتدت خطوتي ثقيلة وهي تقطع الماء. وامتدت يدي في محاولة لقياس المسافة. كان السكون شاحباً وكثيباً، وكانت رياح عدوة تملأ الجو. اطبقت عليها بيدي، أما اليد الأخرى فتركتها طليقة لتخلق توازناً من نوع ما. كانت هذه اليد وهي تسبح في الهواء تشعرني بشجاعة اضافية، باني امتلك سلاحاً يمكن ان يساعد في اللحظة المناسبة. انتفضت لما سقطت يدي على ظهرها، قريباً من العنق. شعرت بفرح راقص. أحسست بنعومة الريش، لكنها انتفضت مرة أخرى وتحركت بقوة. التفتت في محاولة لتنقذ على يدي، لا شعورياً سحبت اليد وقلت بحقد:

- لا تعرفين الا المذلة والاعتصاب يا عاهرة!

فكرت: لو تركتها دقيقة واحدة فسوف تلتوي وتموت وحينذاك سأنتشلها بنزق، كما لو اني اتعامل مع حجر، لان حالة السكون لا تخيف، لا تخيف أبداً، لكن الحركة هي الرعب!

قلت لنفسي: لا تكن احمق، امدد يديك الاثنتين معاً واقبض عليها، وإذا حاولت المقاومة هشم اضلاعها.

صرخت ويدي تطبقان عليها كمجنون:

- ادمرك اذا تحركت يا ابنة الكلب.

رفعتها فوق رأسي. كانت يداي تطوقان الجناحين، وتقبضان عليها بقوة.

سرت في طريق العودة.

بدا القمر جليلاً مائلاً للخضرة . شعرت بالفرح . فكرت : الظفر لذة الحياة الوحيدة . حالة التوازن التي تستقر في الدم تماماً !

كان صوت الماء مسرفاً بالضجة ، كأنه يكتشف خطوات الانسان لأول مرة . شعرت بالثقة . شعرت اني قوي لدرجة الدمار . قلت لنفسي : الانسان ابن ستين كلب . وليس على سطح الكرة الأرضية أقوى منه . ركضت عشرات الصور في رأسي ، ولا أعرف لماذا توقفت عند الجسر . قلت بصوت حاد :

- كان يجب ان ننسف الجسر .

فكرت : كان من الواجب ان نعبره .

اعتكرت عيناوي . غامت الاشياء امامي ، ثم أسودت . قلت بهياج :
- ان نعبره .. ان ننسفه .. أما أن نتركه هكذا فالموت اهون !

واختل توازني . كدت اقع . انزلت يدي قليلاً في محاولة للتوازن . رأيتها في وجهي ، ورأيتها تسد وجه القمر . توقفت حتى توازنت من جديد . قلت بزهو :

- لا اشعر بالتعب ولا اشعر بالبرد كثيراً .

سادني الصمت لحظة ، ثم اضفت بثقة :

- الظفر يغتال كل الاشياء !

خطوت للامام . سمعت صوت خطواتي كما لم اسمعها من قبل . قلت لنفسي : خطوات الظافرين .

كان من الواجب ان احرق يدي لكي ازيع القصب من جديد واصعد . فكرت : لو امسكت بها بيد واحدة فقد تستغل هذه اللحظة وتتصرف بحماقة الثيران : قد تنهش . قد تفلت من جديد .

قلت استأذنها وقد قررت :

- سأرميك إلى أرض البشر. سأرميك بهدوء ابتها الملكة ،
فلا تغضي !

ومثل طفل صغير حملتها بين يدي من جديد. رفعتها فوق رأسي .
ملكتها. امتلاً قلبي بالفرح ، لما شعرت بامتلاكها .

وكما ترمي وردة لأجمل عينين في الدنيا.. رميتها !
كان شعور الامتلاك يتر من عروقي . كان طوفانا من الاشباع يسيطر
عليّ . قلت وأنا أشد على آخر قصبة لأستعين بها :

- قتلها.. نعم قتلها !

تعمدت الهدوء . وقفت على الأرض الحقيقية . أحسست بالفرح .
أخذت المياه تتراكم على قدمي من الساقين والبنطال المبلول . قلت :

- الاصرار أهم ميزة في الانسان !

فكرت : لأتصرف كرجل . اجفف ملابسي أولاً ، انزع حذائي ،
ولا حاجة للجوارب ، ثانياً وأخيراً استريح وادخن سيجارة وبعد أن تهدأ
روحي أبدأ رحلة العودة .

أعطينها ظهري وقد سيطرت علي ثقة زاخرة بالتحدي . ان ما أقوم به
شيء خاص بي ، ويجب ان لا تراه . سوف لن أتركها ترى ساقى
المبلولتين ، ولا بنطالي المليء بالوحل . ستشمت بي لو رأت ذلك . قلت
لنفسى : لأنه بسرعة ، وفي الدار يمكن ان اغتسل . فكرت : سيكون
الحمام الساخن دافئاً ولذيذاً .

قلت بصوت يتموج بالفرح والثقة :

- احس كل شيء الآن رائعاً ، بعد ان انتهيت من رحلة
التعريس !

ضحكت للكلمة الأخيرة . قلت بصوت اخرق :

- للمتصرين قاموس يختلف عن قاموس المهزومين، ويحق لي ان ارقص الآن.

اختل توازني، لما بدأت أخلع الحذاء. جلست على الأرض.. شعرت بالبرودة، ذكرتني البرودة بصلابة الحقائق. ولا أعرف لماذا التفت إلى الجسر، وكأني أحسست بشيء. السكون والقمر وأشجار الحور. وكان الجسر. لم أر أحداً. دقت النظر. سحبت نظراتي إلى الناحية الثانية. لم أر شيئاً. تعمدت أن أنظر نحوها بسرعة، لأشعر بلذة الظفر أكثر. عدت إلى الجسر مرة أخرى. قلت بأسى:

- كان واجبنا، بعد ان بنينا الجسر، أن نعبره.

فكرت: لم يكن عبور الجسر صعباً لو اردنا ان نعبره
قلت بنزق:

- أو تنسفه، إذا لم نستطع ان نعبره.

لما هبت الريح من جديد تملكنتني قشعريرة. قلت لنفسي: كما كانت
جدتي تقول: ملك الموت مر الآن من هنا!
صرخت على وردان:

- ايها الخنزير، لا تفسد رائحتها، ابتعد، كنت أولى منها بالقتل.

اغرب شيء ان وردان بدأ يداعبها. ظل أول الأمر بعيداً، وقد أحس
ان غضبي قد يتحول إلى ضربات لا تعرف الرحمة. لكن بعد أن رأى
صمتي اقترب. ألقى بعيداً، أول الأمر، وفي ظل مرتفع صغير.. ثم
اقترب... والآن يداعبها!

نهضت على عجل. عصرت الجوارب ووضعتها في جيبتي. لبست
الحذاء البارد، وماكدت اخطو باتجاه البندقية لألتقطها حتى اجفل
وردان، وابتعد. قلت:

- الحساب بيننا لم يبدأ.

ضحكت. فكرت: اهدد كثيراً ولا أفعل شيئاً، ثم انه مخلوق
تعيس ويخاف من تلويحة اليد ومن الليل والماء البارد!
صرخت:

- انت يا وردان علة لا تنتهي. انس كل شيء وتعال.

كان يروق لي ان ألتقطها دون اهتمام. كنت احس بوجودها في
دمي، وفكرت ان امنح نفسي مزيداً من اللذة إذا التقطتها بطريقة مدلة،
كأنها شيء عادي، لا يستدعي الانفعال أو الاحتفال!

درت دورة صغيرة لألقي آخر نظرة على المكان. علقت البندقية كما
كان الشيخ يفعل، وبدأت ألتقطها. قلت لوردان:
- الآن نبدأ.

لا اعرف لماذا فكرت ان ألقى عليها نظرة. رفعتها باجلال نحو القمر.
ولأول مرة رأيتها.

رأيتها في ضوء القمر. كانت وهي تتمرجح وتهتز بين يدي، في ضوء
القمر.. كانت اقبح بومة تراها العين. كانت باردة.. وميتة!



الفصل الثامن عشر

.. في طريق العودة، قلت لوردان ونحن نجتاز الباب الشرقي :
- لتقطع يداي ولأصبح مجذوماً اذا ظلمت هكذا!
فكرت : زكي نداوي له عيان ويدان، ويستطيع أن يفكر ويفعل.
حركت ملف البتزين بقوة عند المنعطف. كاد الموتور ينزلق. نكزت
وردان لأجنبه سقوطاً مؤكداً. قلت بحقد :

- اليدان أقوى من ذنب جائع .. أما الإرادة!
فكرت : الانسان هو الإرادة .الانسان هو الظفر.
قلت لنفسى : اخرس أيها الأعور.. أنت فرد بذيء وأعور، وقد آن
لك أن تنتهي.

تحرك وردان بتلك الطريقة الفذة. كان يريد أن يمتلئ شعوراً
بالراحة، لكن الغضب الذي كان يملأ صدري نتيجة التصرفات الشاذة
والتي لا تفهم أبداً، جعلته متردداً. قلت وانا اشد عليه بقوة لأشعره بمدى
الكراهية :

- سوف ترى بعينك الحولاء كم يستطيع زكي نداوي ان يفعل!
شعرت بحكة في خصيتي. قلت لنفسى بثقة : زكي جرد ينتقل من
مرحاض لآخر، وآن له أن يخنتق في أحد المراحيض!

كانت الدنيا صغيرة. الاضواء تتساقط بشحوب على الوجوه واسفلت الشارع والجدران. قلت لنفسي: الحزن ريح تصفع القلب.
التفت الي وردان. انه يفعل ذلك كثيراً، وكأن احساساً داخلياً يجلده. قلت له:

- وردان.. كيف يستطيع الانسان التغلب على الحزن؟
فكرت: الناس هنا لا يعرفون شيئاً أبداً، ولذلك سيموتون بتلك الطريقة الرخيصة.. طريقة الانقراض!

قلت لوردان بجد:

- اتمنى، يا وردان، لو ان ناس هذه الأرض ينقرضون.
فكرت: الانقراض.. أو أي شيء يماثله لن يحصل في هذا الزمن، ثم ان الانجاب هو الطريقة التي يمارسها الناس هنا ليتغلبوا على السأم!
كدت اصطدم بصهرنج خرج فجأة من أحد الشوارع. توقفت بصعوبة. وبعد أن زائلي الخوف، قلت بحدة:

- ليمتلئ في بالتراب ان تكلمت بعد اليوم بهذه الطريقة!

انقضت أيام كثيرة، استفرقتني فيها الأحزان. لم استطع أن اقرأ، ولم أعد افكر بالصيد. لكن تلك الدودة القاهرة ظلت تنحر في قلبي.
ذات ليلة، وأنا اطل من النافذة، ارقب القمر، قلت بتصميم:
- لأصلي، أو لأغرق في بركة من الوحل، ان فكرت بذلك النوع من الصيد بعد الآن.

قلت لنفسي: لا يمكن ان انسى هذه الزانية. ربما لا تزال قريبة، وراء هذه التلال، ناحية الغرب. والشيخ لا يخطئ اذا ترك البط..
فكرت: هل استطيع.. أو هل يجب ان اسلم بسهولة.

وتذكرت الجسر. قلت بأسى :

- الهزيمة إذا بدأت لا تنتهي ، وعلي أن أفعل شيئاً ..
وذهبت إلى الناس !

الحزن يلف الوجوه ، والرجال إذا حزنوا ، إذا بكوا ، فان شيئاً خارقاً
يكون قد حفر قلوبهم .

حاولت مرات كثيرة ان اتحدث عن الجسر .. حاولت مع جميع
الذين التقيت بهم . تحدثت ببساطة عن ذلك ، لكن أيا منهم كان يسحب
عني نظراته .. ويغيب في الحزن . وكثيراً ما تساءلت : ألا يحتمل ان يكون
لدى هؤلاء الرجال جسور تحزنهم ؟

في ليلة .. في أواخر آذار جلسنا . كنا ثلاثة رجال ، وكانت تربطنا
علاقات العمل . لما بدأت أتحدث عن الجسر قال لي عامل الهاتف ،
والذي لم أره منذ وقت طويل ، لكنني اسمع صوته مرات كثيرة كل يوم ..
قال :

- لا تتحدث .. ان للجدران آذاناً ، وسوف يقتلونك .

- لا اتحدث عن احد .. اتحدث عن الجسر !

- والجسر .. الا يعني شيئاً ؟

- هذا ما اردت ان اقله .

أما الرجل الآخر ، وكان زميلي في نفس الغرفة ، فقد ابتسم بحزن
وقال :

- يمكن دائماً بناء الجسور .. الصعب هو بناء الانسان

ولا أعرف لماذا سيطر علي الغباء .. سألته :

- بناء الانسان ؟

- نعم بناء انسان من نوع جديد !

- تقصد.. انساناً لا يترك الجسر!
- اقصد.. انساناً لا يترك الجسر ويعرف كيف يتصرف.
- لا افهم جيداً.

قال عامل الهاتف، بعد أن التفت أكثر من مرة:

- ماذا لو تركنا حديث الجسور؟

قال الثاني:

- نتحدث عن البشر. الجسور لا يعرفها الا زكي نداوي.

قلت بحدة:

- لا اعرف إلا ذلك الجسر اللعين!

لما تركت الرجلين استبدت بي أفكار كثيرة وغامضة. فكرت
بالكلمات التي قالها. بدت لي مضيئة واقرب إلى شيء احبه.. وقررت ان
اتصرف بطريقة جديدة!

وزكي نداوي الذي يقرر في الليل.. ينسى في النهار

قلت بصوت مليء بالثقة:

- سوف اترك الزانية تلف الدنيا.. وفي الشتاء القادم وحدها ستأتي

إلي، ولن اخوض في المياه ولن انتظر في الليل!

فكرت: وردان نجم متوهج، وإذا كان الضعف والحزن اللذان

يبدوان عليه، من خيبة تلك الليلة، فلا بد ان طيور القرى ستجعل منه كلباً
آخر!

قلت بثقة نبي:

- وانت يا زكي.. بعد ان تمتطي ظهور تلك الطيور بطلقاتك

العجيبة، ستكون انساناً آخر!

وجاء نيسان.. وظلت الامطار الكثيفة تتساقط بغزارة، وتغيرت معالم الطبيعة، لكن ذلك اليوم، من أيام نيسان الأخيرة، كان قاسياً لدرجة لا يمكن لإنسان أن يحتمله.

فبعد ان ظفرنا ظفراً مباركاً، واعتبرت ذلك نتيجة القداسة التي يتمتع بها يوم عيد الفصح، حسب التقويم الشرقي، حسب طيور الفري التي اصطلدتها أنا ووردان، ثم علقتهما في الشناقة باحكام ورضى.. وكدت أعود.

لكن الأمور لا تسير كما يريد زكي نداوي.

ظل وردان يطارد. ظل يدور في الحقول الخضراء بلهفة محمومة، وكأنه يبحث عن شيء.

تحدثت إليه بلغة المودة.. بلغة الآباء. قلت له :

- لم يعد في قلبي أي حقد عليك، نتيجة تلك الليلة. لقد نسيته يا وردان.. وعلينا ان نذهب قبل سقوط المطر!

لكن وردان ظل عنيداً. كان ينسى كلماتي بسرعة، إذ لا يقف لحظة صغيرة، ويتطلع إلي بعينين متسائلتين. حتى يندفع مرة أخرى، وكأن شيئاً يناديه.

بدأ الضيق يجثم على صدري، وأنا أراه يتصرف هكذا. قلت له :

- وردان.. يجب ان تفهم.. لم أعد استطيع المشي أكثر، وإذا أردت ان تمشي.. فسوف نفعل ذلك في يوم آخر!

لكن وردان ظل عنيداً!

وحصل ذلك الأمر الذي لا استطيع ان اصدقه!

كان وردان يخب في الزروع مثل قطعة نار. لم يكن يترك بقعة خضراء الا ويحرقها. كان يندفع كالزوابع. ولا يظهر إلا على شكل لمعان

ازرق متموج .. على شكل انفجارات صغيرة متباعدة ، بين الزروع . كان كل لحظة في مكان جديد . فإذا انتهى من حقل ، يلتفت نحوي ، ليدلني على المكان الذي صار فيه ..

كانت المسافة بيننا لا تتعدى بضعة أمتار ، عندما حصل ذلك .
الثلة الصغيرة المحفورة من أحد جوانبها ، ترتاح عليها ثلاث اشجار من الزيتون ، وتقف فوقها صخرة كبيرة .

كنت قد قررت ان نستريح تحت الشجرة الأولى القريبة من الساقية .
قلت لنفسني : سوف اجلسه إلى جانبي حتى لو اضطرتت إلى استعمال القوة ، وسوف لن اترك له ان يجزني وراءه كما تجر الكلاب !
قلت له بطريقة راجية :

- وردان .. توقف عند الشجرة ، حتى اصل !

لمع جلده بحدة .. كانت قطرات العرق قد تسربت من الجلد ، فأصبح أكثر من لون السواد . قلت لنفسني : إذا عاند فسوف اربطه !

كانت الأفكار تتلاحق في رأسي ، وكنت أقرب إلى الفرح ، ومع ذلك أردت أن أكون حاسماً .. ولا أنكر ان عاطفة قاتمة عبرت رأسي في لحظة معينة . قلت لوردان بحزم .

- سأكون قاسياً يا وردان إذا استبد بك الجنون !

لو أنني لم أقل هذه الكلمات اللثيمة ، لمرت الأمور بسلام ، لكن آذان وردان المتهدلة ، الملتصقة بالأرض ، والتي يمنحها في لحظات كثيرة للريح ، كانت اذناه تنتصتان إلي وإلا لماذا حصل ذلك الشيء ؟

كان يخب ، كان يغيب بين الزروع . قلت له آلاف المرات :

- ارفع رأسك .. ارفعه لأراك يا وردان !

كان يرفعه للحظة ، ثم يعود. كان يحب الأرض لدرجة يريد
الالتصاق بها ، ولأنه كان يحب الأرض هكذا ، حصل ذلك الشيء !
كانت الشمس ترسل اشعة باهتة من وراء الجبل البعيد. وكانت ريح
صغيرة أقرب إلى النسيم تعبر الدنيا.. في تلك اللحظة سمعت الدوي ..
وحصل ذلك الشيء !

كدت اجن . أمتلأت باحساس كثيف وخائق .. انقبض قلبي أول
الأمر .. ثم ارتجفت .. وتيقنت ان كل شيء قد انتهى .

اصطدم رأس وردان بصخرة تنام وسط الزرع .. كان الدوي اقرب
إلى اللولولة المفاجئة .. واشبه بانفجار .

ولا يمكن لأية كلمات ان تقول ذلك الذي حصل !

بدأ وردان يتلوى . كانت الزروع تنخض ، ونافورة الدم تصعد لتلتحم
بالافق .. والشخير وعواء مكتوم يتصاعدان .. وبعد ذلك انتهى كل شيء ..
في تلك الليلة قررت .

ولم أنس القرار في اليوم التالي .

وقبل أن تغيب شمس اليوم الأول كنت قد وضعت في زحام البشر ،
وبدأت اكتشف الحزن في الوجوه .. وتأكدت ان جميع الرجال يعرفون
شيئاً كثيراً عن الجسر ، وانهم ينتظرون .. ينتظرون ليفعلوا شيئاً .

انتهت

